سلسلة روائع الفكر العالمي

مصر
تاريخ... وحضارة

جميع الحقوق محفوظة

1984

إعداد:

رابع خدوسي

دار الحضارة

obeikan.com

obeikan.com

دار الحضارة
مؤسسة ثقافية للتأليف والنشر
بئر التوتة - الجزائر

obeikan.com

obeikan.com

تقديم

عزيزي القارئ...

هذه مصر بين يديك، مختزلة في بعض روائعها

مصر أم الدنيا:

النيل والأهرام والأزهر الشريف... هذه المعالم الحضارية المتوهجة بمكنوناتها عبر التاريخ...

مصر منبت العبقريات...

العقاد، سيد قطب، زكي نجيب محمود، الرافعي، طه حسين، المهندس حسن فتحي، فاروق الباز... وغيرهم من أعمدة الفكر والعلم في العصر الحديث...

أرض الكنانة:

مصر صلاح الدين الأيوبي وسعد زغلول، رفاعة الطهطاوي حسن البنا وغيرهم من رجالات الكفاح السياسي بالسيف أو بالقلم...

ولا ننسى الفن.. سيد درويش يوسف وهبي وغيرهما.. انه عالم بذاته.. كل شيء يغني للحياة..

انها مصر هذه الفسيفساء... سنفونية الابداع... موطن الحضارات ومهد العلم والفن والجمال... ندعوك لارتشاف قطرات من بحرها...

رابح خدوسي

obeikan.com

تعاريف

بقلم: الأستاذ سليمان عبد الغفار

- مصـــــر
- العقـــاد
- حســـــن فتحي

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

- مصر... مجتمع ذو حضارة قديمة وعريقة... حضارة موغلة في القدم.. فكلما توغلت في التاريخ وجدت الحضارة المصرية تؤدي دورا مركزيا فاعلا.

- وإذا كانت الحضارة المصرية القديمة هي أحد أهم وأقدم الحضارات الإنسانية، فان الدولة المصرية القديمة هي اقدم نظام سياسي عرفه التاريخ على الاطلاق، فحين اسس الملك مينا الدولة المصرية (حوالي 3200 سنة ق.م) كان قد وضع نظاما سياسيا للحكم لم يكن معروفا لدى البشرية.

- غير أن قيام الدولة في مصر القديمة لم يكن إلاّ مؤشرا لتقديم المجتمع المصري القديم وبلوغه لمستوى معين من التطور في قوى الانتاج والتنظيم والإدارة والمعرفة العلمية (خاصة الرياضيات) والإنسانية خاصة الفكر السياسي الذي يسمح بوجود الدولة.

- إذا كانت الدولة في مصر القديمة تعُدُ مؤشرا لتقديم المجتمع المصري فقد كانت أيضا دفعة جبارة في اتجاه مزيد من التقدم والصعود... فقد أدت الى حشد الموارد وتنظيم الإستفادة منها الى أقصى مدى... وبالفعل فان تنظيم وضبط النيل- ريان الحضارة المصرية- لم يكن ليتم دون وجود الدولة، وكذلك اعظم المشروعات المعمارية التي هي الآن أهم اثار مصر مثل الاهرام ومعابد الكرنك لم يكن ليتم دون وجود الدولة.

- إن التقدم الهائل في القوى الذي لحق الدولة انعكس في مزيد من التقدم المعرفي الثقافي والاجتماعي تجلى في مظاهر ومستويات عديدة خاصة المستوى

الديني الذي وصل ذروته في التوحيد الديني والوحدانية الإلهية (اخناتون) في الدولة الحديثة (1585-1308 ق.م) وكان هذا مستوى جديد في الفكر الانساني.

- لقد أتاح هذا التقدم لمصر أن تؤدي دورا مركزيا في الحضارة الانسانية القديمة وحتى العصر الحديث، فما من حضارة أو نظام سياسي أو ديني في منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط إلى قلب العالم القديم إلا وكان لمصر فيها دور فعال...

- فتأثير الحضارة المصرية على الثقافة الهيلنيية معروف وكذلك في الحضارة الهيلنستية بعد غزو الاسكندر المقدوني لمصر 332 ق.م الذي ذهب الى سيوة لتقديم القرابين للإله آمون، وظلت مصر البطلمية بعد ذلك ذات تأثير واضح في الثقافة الهيلنستية.

- وبعد دخول مصر في الامبراطورية الرومانية (34 ق.م)... كان تأثيرها واضحا، خاصة مدينة الاسكندرية التي نافست روما في الثقل الحضاري والسياسي وكثيرا ما كان لها التأثير الحاسم.

- وبعد ظهور المسيحية ودخولها مصر في منتصف القرن الأول.. كان للحضارة المصرية تأثير حاسم جلياً في تكون الكنيسة المصرية بتأثيرها المعروف في الكنيسة الشرقية حتى اليوم وكذلك نشرها للديانة المسيحية في الشرق والقارة الافريقية بل وحتى في اوربا ذاتها.. ولازال كثير من القديسين المصريين يرقدون هناك.

- وحين دخل الإسلام مصر واستقر فيها (حوالي 641م) سرعان ما اضحت مصر من أهم مراكز الاسلام وعندما اصبحت عاصمة الخلافة الفاطمية أضحت مصر اهم البلاد الاسلامية، وأهلتها عوامل التاريخ والجغرافيا لأن تقود العالم الاسلامي في مواجهة اعتى الهجمات الاستعمارية الاوروبية التي عرفت باسم الحملات الصليبية، ثم تصدت بعد ذلك لهجمات أكثر خطورة جاءت هذه المرة من

الشرق على يد القبائل الرعوية التي عرفت باسم التتر أو المغول وفي ذلك يقول انتوني نتنج (إن مصر لم تحم العالم الإسلامي فقط ، بل حمت المدنية الإنسانية كلها من خطر الإنهيار).

- وحين بدأت الخلافة العثمانية في الضعف والتحلل كان المصريون قد استشعروا الخطر وكان مشروعهم وطموحهم في اقامة دولتهم الحديثة المستقلة قد قطع شوطًا طويلاً، وكانت المحاولات قد تعددت بحيث لم يأت مطلع القرن التاسع عشر إلاّ وقد أسست هذه الدولة الحديثة وسط انهيار الخلافة العثمانية واشتداد الهجمات الاستعمارية.

- واستطاعت هذه الدولة الفتية - التي ولدت في ظروف تاريخية عصيبة ميزها سعار استعماري رهيب - ان تقطع شوطا كبيرا في تحديث المجتمع المصري وإعادة بنائه وبناء مؤسساته، غير أنها لم تصمد طويلا في مواجهة الهجمات الشرسة فسقطت أخيرا في أيدي الاستعمار البريطاني عام 1882م.

- غير أن بنية المجتمع المصري -الحديثة نسبيا- وتاريخه الطويل لم يسمحا للإستعمار بالبقاء في مصر طويلا... وقد شهدت ثورات ضخمة مثل ثورة 1919م استطاعت أن ترغم المستعمر على الاعتراف باستقلال مصر -رسميا على الأقل- في معاهدة 1936م.

- وبقيام ثورة 1952م حصل المصريون على استقلالهم النهائي والفعلي في سنة 1954م ولم تكن هذه الثورة إلاّ مقدمة لاعادة بناء الدولة المصرية المستقلة وتحديث المجتمع المصري والنهوض بالمهام التاريخية التي عُطِلتْ منذ دخول المستعمر عام 1882، ولم تكن أيضا سوى مقدمة لأن تؤدي مصر دورها الهام والطبيعي في تحرر البشرية وتقدمها خاصة في دوائر تأثيرها الطبيعية (العربية والإسلامية والإفريقية والبحر متوسطية)... وهي بتاريخ عريق وقدرات حديثة مؤهلة لمزيد من التقدم والنمو ومؤهلة لان تؤدي دورها التاريخي في المنطقة والعالم..

الأستاذ سليمان عبد الغفار

العقاد المفكر والفيلسوف

كرس العقاد حياته للقراءة والكتابة وكان تلميذاً للإمام محمد عبده.. فقام بنشر الفكرة الإسلامية على المساحات العريضة من الجمهور العام... وقطع العقاد في هذه المسيرة شوطاً طويلاً وبدأ بالدفاع عن اللغة الشاعرة، وفيما بين نقطتي البداية والإنتهاء دافع العقاد عن أصالة الفكر الإسلامي.. سواء في النقد أو في الابداع.. كما دافع عن العقيدة الإلهية في النظر العقلي عند مفكري الإسلام وعن الفلسفة القرآنية كما وردت في آيات الكتاب الكريم، وعن التفكير من حيث هو فريضة إسلامية وعن الديمقراطية من حيث هي مبدأ إجتماعي في الإسلام وعن الفكرة الإسلامية من حيث هي أقوى سلاح في يد العرب يواجهون به أعداءهم المتربصين.

العقاد العبقرية الإسلامية:

ظهرت عبقريات العقاد الإسلامية كرد فعل طبيعي على دعاة الآرية والسامية، أولئك الذين يحاولون أن يجردوا العقلية العربية من كل قدرة على الخلق والإبداع، بدعوى أن الجنس السامي عاجز عن الإبداع الفكري والفلسفي، قادر فحسب على الأخذ دون العطاء.. فالعقاد يرد على دعاة التفرقة العنصرية بأن قوة التفكير تقاس بالقدرة على فهم ما يبتكر الآخرون كما تقاس بالقدرة على ابتكاره، فلا تتهم أمة بالعجز عن التفكير اذا استطاعت أن تفهم مبتكرات الفكر في أمة أخرى.. لا سيما اذا علمنا أن الإبتكار المحض لم يُكتب لأمة من الأمم.

ولا يقف العقاد عند هذا الحد بل يتجاوزه الى الكشف عن أصالة الفكر الإسلامي كما هو ممثل في عباقرته.. «محمد من الأنبياء»، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي من الخلفاء» وخالد ومعاوية وفاطمة والحسين من الصحابة، وحجة الإسلام الغزالي والشارح الأكبر ابن رشد والشيخ الرئيس ابن سينا من المفكرين ولا يتسع لنا المقام في هذا المقال بتناول عبقريات هؤلاء العظام بمزيد من التفصيل.

العقاد والدفاع عن الإسلام:

يجيء دفاع العقاد عن حقائق الإسلام ورده على أباطيل خصومه، ليكشف القناع عن مؤمرات بعض المستشرقين والمبشرين والإستعمار فضلاً عن الصهيونية العالمية وفي هذا الصدد يقول العقاد: «نحن نعلم أن هذه الروحية الخالذة في مفترق طريق وعرة تقف لديها لتثبت وجودها في مستقبلها بعد أن أثبتت وجودها في حياتها وماضيها، ولقد وقف الإسلام مرات في مثل هذا المفترق أمام خصومه منذ قيام الدعوة المحمدية، وصد لحملات عنيفة كهذه الحملات التي يشنها على خصومه في الحاضر ولكنها على أكثرها كانت من قبيل الحملات المادية أو الحملات الحربية التي شنها عليه منافسوه من أرباب الدولة والسلطان»... وقبل أن يقف الإسلام طويلا أمام قوة يحفل بها لأنها تتصدى له من الوجهة الروحية.. إذا كانت القوى الروحية التي تصدت له فيما مضى تنظر الى ماضيها فتلمس فيه الفارق بينه وبينها ولا تأمن عاقبة الجولة في هذا المجال.. أما حملات العصر الحديث فأهونها كما يرى العقاد حملات الدولة والسلطان، وهي الحملات التي شنها على الإستعمار ثم ظهر منها بعد حين أنها لم تقتل فيه قوة المقاومة ولم تمنعه من أن يصمُد لها في ميدان البأس والحيلة، فكان صمود الإسلام لمحنة الإستعمار آية من آيات القوة الروحية تعد المعتصمين بها حين تخذلهم قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال،لم يكن في هذه العقيدة الخالدة سر أعمق جدا من أسرار العقائد الشائعة لما اعتصم المسلمون منها بمعتصم نافع أمام هذه القوى المتضافرة عليها مجتمعات.. هذا عن الاستعمار أما عن المبشرين فلا يستطيع المبشرا المحترف أن ينال من الإسلام بما

يدعيه عليه من التحريف والتشويه للأديان التي سبقته، لأن قائد الاسلام في الإله وفي النبوة وفي الخير والشر وفي حقوق الإنسان أرفع وأصلح مما جاءت به الأديان التي سبقته إذا وُزنت كلها بميزان واحد يأخذ هنا بما يأخذ هناك.. وليس في عقائد الإسلام ما يعتبره المنصف نكسة الى الوراء أو يعتبره تطورا في عقيدة تترقى مع الزمن حسبما يعرض لها من الظروف والملابسات.

ديمقراطية الإسلام كما يراها العقاد:

يرى العقاد أنها ديمقراطية خاصة لأنها أهم من كل ديمقراطية عداها، قامت على حق الإنسان وتبعته أمام ربه وأمام ضميره، فحينما وجد انسان بين الناس فهو صاحب حق في هذه الديمقراطية، ولدته أمه به ولم تخوله اياه حنكة السياسة ولا تفضيل ادارة على ادارة في ولاية الشئون العامة، ولا احتيال من الأقوياء على الضعفاء لإقناعهم بالصبر والطاعة، ولم يأت مكافأة لقوم على عمل في الحرب أو في السلام ولكنه هو الحق التي نصدر منه الحقوق ويدين به المخلوق لخالقه ولا ينتظر فيه إذنا من كبير ولا صكا مُتفق عليه بين الكبار والصغار.. هي ديمقراطية خاصة لأنها تخالف الديمقراطيات الأخرى في نشأتها وغايتها، وتتسع بأصول الحكم حتى تخرج بها من الصبغة المحلية الإنسانية بل الكونية.

شاعرية اللغة العربية عند العقاد:

كشف العقاد عن مزايا اللغة العربية والتي تنفرد بها في الفن والتعبير، وهي مزايا لها من أجيال طويلة حتى ينتهي تطور اللغة الى هذه التفرقة الدقيقة بين أحكام الإعراب أو بين صيغ المشتقات أو بين أوزان الجمع و المثنى وجموع الكثرة والقلة في الأوزان السماعية، هذا الى جانب أن اللغة العربية لغة مقبولة يستريح إليها السامع كما يستريح الي النظم المرتل والكلام الموزون، وهي أيضا لغة يتلاقى فيها تعبير الحقيقة وتعبير المجاز عل نحو لا يُعهد له نظير في سائر اللغات. ومن ثم فهي لغة شاعرة لا مجرد لغة شعرية أو لغة شعر.. وفي هذا

يقول الأستاذ العقاد في كتابه اللغة الشاعرة: «إن الحاجة الي ابراز هذه المزايا تمس غاية المساس في زمن تعرضت فيه هذه اللغة وحدها بين لغات العالم لكل ما ينصب عليها من معامل الهدم، ويحبط بها في دسائس الراصدين لها، لأنها قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية، لا لأنها لغة كلام وكفى».. ولكل هذه الأسباب رفع الله قدر لغتنا العربية لتكون لغة القرآن.

.. لهذا يتسنى لنا أن نقول أن العقاد لم يكتسب مكانته الأدبية الرفيعة من جاه ولا من وظيفة ولا من لقب علمي، انما اكتسبها من كفاحه المتصل العنيف الذي يعد به أعجوبة من أعاجيب عصرنا النادرة، فعكف على قراءة فلاسفة العرب والغرب وراح يبحث ويُحلل فانفتحت له أبواب أدبنا والآداب الغربية على مصاريعها، ونفذ من كل ذلك الى صورة أدبية عربية جديدة، فسح فيها طاقات التعبير حتى لكأنما انتقل بأدبنا العربي من ضفة الى ضفة أخرى... فسلام على العقاد الذي أتاحت له عبقريته الكشف عن عباقرة الإسلام الخالدين.

سليمان عبد الغفار سليمان

المراجع:

١- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ..... تأليف عباس العقاد.

٢- الديمقراطية في الإسلام ..... تأليف عباس العقاد.

٣- اللغة الشاعرة ..... تأليف عباس العقاد.

٤- ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة ..... تأليف جلال الشرقاوي.

٥- مع العقاد ..... د. شوقي ضيف.

حسن فتحي
أستاذ فن العمارة

ولد حسن فتحي في مطلع هذا القرن ودرس فن العمارة في مدرسة المهندسين في القاهرة -وبعد تخرجه جاب أرجاء مصر مهندساً، وكان أول من نبه الى قيمة التراث المعماري العربي، كما عمل أستاذاً للعمارة بكلية الفنون الجميلة فتربى على يديه جيل من المعماريين الذين عشقوا العمارة التقليدية القديمة- وكرس لبناء قرية عصرية على أسس البناء القديمة -فمنذ أن شاهد ضآلة القرية العربية اكتشف أن أفضل مهندس هو الفلاح بذاته، وأخذ يبحث في ضوء العلم الحديث؛ كيف يبني قرية أفضل...؟ ثم كيف يصل إلى معمار أكثر أصالة-فالعمارة كما يراها موسيقى جامدة تتكون من إيقاعات وأنغام، ويدرك أن كل الفنون لابد لها أن ترتبط بالبيئة وإقتصادياتها.

- واجه حسن فتحي الإحباط في كثير من مشاريعه- وأثارت قرية «القرنة» التي صممها جدلاً لم يتوقف حتى الآن فكتب الروائي الكبير فتحي غانم قصة «الجبل» دفاعاً عن حسن فتحي، وقدم رؤيته من أن فشل (القرنة)، يعود الى تحالف غير مقدس بين حراس الأثار ومهديها، فبعد أن كانت «القرنة» أيام الفراعنة مقابر مدينة طيبة والأقصر وزمن الملوك والأشراف إكتشف الأهالي أن تحت بيوتهم كنوزا، وأخذوا ينقبون عن الآثار ويبيعون ما يعثرون عليه، وعندما قررت مصلحة الآثار بناء قرية جديدة وكان من الطبيعي أن يقاوموا دلك.

- قام حسن فتحي بتصميم «القرنة» لم يستورد لها إسمنت ولا حديد، لأنه يرى أن البيوت المبنية من الحجر أو الطين أصلح البيوت لسكان المناطق الحارة -بل أنه نجح في أن يجعل تكلفة المتر من مباني هذه القرية ثلاثة جنيهات

وستين قرشاً- ورغم عظمة الإنجاز الذي حققه لم ينتقل إليها أحد، ولكن كان لذلك صدى واسع في الأوساط العالمية- فقام معهد العمارة الاستوائية بلندن، ومعهد أثينا التكنولوجي وجامعة أريزونا الأمريكية بوضع نموذج قرية «القرنة» ضمن مناهة دراستها كما أن متحف مدينة بوسطن الأمريكية يحتفظ بنموذج «القرنة» كمثل لتطور العمارة.

ألف حسن فتحي كتابًا سماه «العمارة للفقراء» لاقى نجاحا واسعاً وترجم الى خمس لغات، صدرت فيه ثلاث طبقات في فرنسا ووصفت مجلة «لونوفيل أو سرفاتورا» الكتاب بقولها: «لم يسبق أن وضع مهندس برنامجاً مدروساً بدقة واحترام شديد، راعى خلاله كل المميزات والحاجات والملامح الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لمجموعة انسانية».

ووصفت منظمة اليونسكو المهندس حسن فتحي بأنه أحسن مهندس للبيئة في العالم، وقامت بانتاج فيلم وثائقي عنه وعن أعماله المعمارية.

- ولازال حسن فتحي يترك المجال للجدل الواسع حوله فمن المعماريين من يقول: أن تأثيره كأستاذ أعمق بكثير من تأثيره كمعماري..» ومنهم من يقول: «أنه يعمل كمهندس مملوكي في العصر الحديث.. بينما يرى الأغلبية أن أفكاره لم تنفذ بالكامل بعد، فلا قرية القرنة اكتملت، ولا قرية باريز نفذت».

ملامح البيت العربي عند حسن فتحي:

- يرى حسن فتحي أن العمارة الإسلامية سبقت الثورة الصناعية، وقامت قبل إستخدام المواد المصنعة.. وان المعماري المسلم كان بينه وبين المادة حوار خلاق، فيعمل بلا مهندس وبلا لوحة رسم أو ورق شفاف..... والبيت العربى في نظر حسن فتحي يهتم براحة ساكنه، راحة مادية ونفسية، ويوفر لها الخصوصية التي ينشدها ويراعي في تصميمه أيضًا معالجات الصوت والإضاءة والحرارة، ويهتم كذلك بالروابط الأسرية داخل البيت من جانب، وبالروابط الإجتماعية داخل المجتمع من جانب آخر.

- ويرى حسن فتحي أن القاعة هي أهم عنصر في البيت العربي، وهي عبارة عن فناء مفتوح تحيطه ايوانات من كل الإتجاهات، كما أن القباب ومساقط الهواء الموروثة هي أصلح أساليب البناء في الريف والصحراء.

- والبيت العربي هو بيت المستقبل، وقد اعترف الباحثون الأجانب بذلك وعلى سبيل المثال تنتشر في اسكتلندا وايرلندا البيوت المبنية على الطراز العربي.

موقف حسن فتحي من قضية الأصالة والمعاصرة:

- إن ما يدور في مجال العمارة فى ترواح بين العمارة العربية والعمارة الحديثة ماهو إلاّ صورة من الصراع بين القديم والحديث- ولا يعتبر فن حسن فتحي على العمارة العربية - بل يرى أنها تناسب أصلها ولكن تناسبنا، فهناك متبادلات ثقافية بين الثقافات والحضارات المختلفة، وهناك مالا يقبل التبادل، والعمارة ليست من هذه التبادلات فلا يمكن أن نأخذ عمارة أجنبية ونزرعها فى بلاد شرقية دون مراعاة للعادات وظروف البيئة والوضع الإقتصادي.

- ويجهر حسن فتحي برأيه في مسألة التقدم والتخلف ويرى بأنها نسبية- فليست هناك في الواقع دول متقدمة وأخرى متخلفة فهي أسطورة ابتدعتها الدول الصناعية لكي تجذب الدول الصغيرة الى فلكها، فإذا صح التقدم والتخلف في الصناعة، فهو لا يصح في الفنون الثقافية والتي منها «المعمار» فلكل دولة طابعها الخاص الذي تتميز به عن غيرها:.

وفي هذا الإطار يتساءل حسن فتحي: -هل حدث تغيير في نظام العائلة العربية، وأصبح الأب والأم والبنات والأولاد يبقون في الشارع؟! ويجيب على هذا التساؤل بقوله: إذا كان الأمر كذلك فأنا أوافق على واجهات الزجاج الجديدة، أما إذا كان نظام العائلة مازال قائما كوحدة أساسية في المجتمع العربي.. فالعمارة الإسلامية إذا مازالت هي الأساس، لأن الصفة الرئيسية التي تميزها هي الإنعكاف على الداخل وليس على الخارج - ويستطرد حسن فتحي

قائلا: إذا كانت الأسرة العربية التي تميزها هي الإنعكاف على الداخل وليس على الخارج- ويستطرد حسن فتحي قائلا: اذا كانت الأسرة العربية مازالت تنظر الى قدسية السماء وليس إلى قدسية الشارع بتلوثه وضجيجه وسياراته، فالعمارة العربية هي ما يناسبنا

- ولحسن فتحي رأي هام في الروح التعاونية التي يجب أن تود بين أفراد المجتمع يقول فيه: أن البيت يسكنه واحد ويبنيه عشرة، لأن الواحد لا يستطيع أن يبني بيته، ولكن العشرة معا يمكنهم أن يقيموا عشرة بيوت.

وختامًا.. فإن الذي يميز المهندس الراحل حسن فتحي هو الصدق مع البيئة دون إنحراف، وإدراكه لأثر الثقافة والفنون والتقاليد والوضع الإقتصادي، واستطاع بفكره الثاقب أن يتجاوز عالماً تهيمن عليه الحضارة بحلولها.

obeikan.com

شعـــــر

obeikan.com

obeikan.com

الهمزية النبوية

للشاعر: أحمد شوقي

وُلد الهدى، فالكائنات ضياءُ ... وفمُ الزمان تبسّمٌ وثناءُ
الروحُ والملأُ الملائكُ حَوْلَهُ ... للدِّين والدنيا به بُشَراءُ [1]
والعرشُ يزهو، والحظيرةُ تزدَهي ... والمنتهي، والسِّدْرَةُ العصماءُ [2]
وحديقةُ الفرقان ضاحكةُ الربا ... بالترجمان، شذيّة، غنّاء [3]
والوحْيُ يقطرُ سلْسَلاً من سلسلٍ ... واللوحُ والقلمُ البديعُ رُواءُ [4]
نُظمَتْ أسامي الرُّسْلِ فهي صحيفةٌ ... في اللوح، واسمُ محمدٍ طُغراءُ [5]
اسمُ الجلالة في بديع حروفهِ * * ألِفٌ هنالك، واسمُ (طه) باءُ

ياخير من جاء الوجودَ، تحيةً ... من مُرسلين الى الهدى بك جاءوا
بيت النبيِّين الذي لا يلتقي ... إلاّ الحنائف فيه والحنفاءُ [6]
خيرُ الأبوة حازَهم لكَ (آدمٌ) ... دونَ الأنام، وأحرزتْ حوّاءُ
هم أدركوا عزَّ النبوّة وانتهت ... فيها إليك العزّةُ القعساءُ [7]
خُلقَتْ لبيتك، وهو مخلوقٌ لها ... إن العظائمَ كفؤها العظماءُ
بك بشَّرَ اللهُ المساءَ فزُيِّنَت ... وتضوّعت مسكًا بك الغبراءُ [8]

1- الروح الأمين: لقب جبريل، والملأ: الاشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع بشير.
2- يزهو: يشرق. وسدرة المنتهى: يقال انها شجرة نبق على يمين العرش. 3- الربا: جمع ربوة. وهي ما ارتفع من الأرض. 4- الرواء ماء الوجه وحسن المنظر. 5- الطغراء: ما يسميه العامة «طرة» وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر. 6- الحنيف: الصحيح الميل الى الإسلام وكل من كان على دين ابراهيم عليه السلام، والجمع حنفاء، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف 7- القعساء: المنيعة الثابتة 8- تضوع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء الأرض.

وبدا مُحَيّاك الذي قسماته ... حق، وغُرَّتُه هُدى وحياءُ [1]

وعليه من نورِ النُّبُوّةِ رونق ... ومن الخليل وهديه سيماءُ [2]

أثنى (المسيحُ) عليه خلف سمائه ... وتهلّلت واهتزت (العذراءُ) [3]

يومٌ يتيهُ على الزمان صباحُه ... ومساؤه (بمحمدٍ) وضّاءُ

الحقُّ عالي الركن فيه، مُظفَّرٌ ... في الملك، لا يعلو عليه لواءُ

ذُعِرت عروش الظالمين، فزلزلت ... وعلتْ على تيجانهم أصداء

والنار خاوية الجوانب حولهم ... خمدت ذوائبها، وغاض الماء [4]

والآيُ تَتْرى، والخوارق جمّةٌ ... (جبريل) رواح بها غدّاء [5]

نعمَ اليتيمُ بدت مخايل فضله ... واليتم رزق بعضه وذكاء [6]

في المهد يُستسقى الحيا برجائه ... وبقصده تُستدفع البأساء [7]

بسوى الأمانة في الصّبا والصدق لم ... يعرفه أهل الصدق والأمناء

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشّق الكبرآء

لو لم تُقِم دينا؛ لقامت وحدها ... دينا تضيء بنورها الآناء

زانتك في الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهنّ ويولع الكرماء

أما الجمال؛ فأنت شمس سمائه ... وملاحة (الصّديق) منك أياء [8]

والحسن من كرم الوجوه، وخيره ... ما أوتي القوّاد والزعماء

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلتَ ما لا تفعل الأنواء [9]

وإذا عفوت فقادرا، ومقدّرا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء

وإذا رحمت فأنت أمٌّ، أو أب ... هذان في الدنيا هما الرحماء

وإذا غضبت فإنما هي غضْبة ... في الحق، لا ضغن ولا بغضاء [10]

وإذا رضيت فذاك في مرضاته ... ورضى الكثير تحلّم ورياء [11]

وإذا خطبتَ فللمنابر هزّة ... تعرو النّدى، وللقلوب بكاء [12]

وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما ... جاء الخصوم من السماء قضاء

1- القسمة ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسمات. 2- الخليل: ابراهيم عليه السلام. 3- العذراء السيدة مريم. 4- خمدت النار: سكن لهيبها. والذوائب جمع ذؤابه، وهي أعلى كل شيء والمراد بالذواهب هنا السنة اللهيب. 5- تترى تتوالى. ورواح غذاء أي يروح ويغدو. 6- المخيلة: المظنة. 7- استسقى الرجل طلب السقي. والحيا: المطر 8- أياء الشمس واياتها: نورها وحسنها. 9- النوء المطر. 10- الضغن: الحقد. 11- التحلم: تكلف الحلم. 12- الندى: النادي

وإذا حميت الماء لم يورد، ولو ... أن القياصر والملوك ظماء
وإذا أجرتَ فأنت بيت الله، لم ... يدخل عليه المستجير عداء
وإذا ملكت النفس قُمتَ ببرّها ... ولو أن ما ملكت يداك الشتاء
وإذا بنيت فخير زوج عشرة ... وإذا ابتنيت فدونك الابناء[1]
وإذا صحبت رأى الوفاء مجسّما ... في بردك الأصحاب والخبطاء
وإذا أخذت العهد، أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمّة ووفاء
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر ... وإذا جريت فإنك النكباء[2]
وتُمدّ حلمك للسفيه مداريا ... حتى يضيق بعرضك السفهاء
في كل نفس من سطاك مهابة ... ولكل نفس في نداك رجاء[3]
والرأي لم يُنض المهنّد دونه ... كالسيف لم تضرب به الاراء[4]

* * *

يا أيها الأمّي، حسبك رتبةً ... في العلم أن دانت بك العلماء[5]
الذكر آية ربّك الكبرى التي ... فيها لباغي المعجزات غناءُ[6]
صدر البيان له إذا التقت اللُّغى ... وتقدّم البلغاءُ والفصحاءُ[7]
نسخت به التوراة وهي وضيئة ... وتخلّف الإنجيلُ وهو ذُكاءُ[8]
لما تمشى في (الحجاز) حكيمُه ... فُضّت (عُكاظُ) به، وقام حراءُ[9]
أزرى بمنطق أهله وبيانهم ... وحيٌ يقَصّرُ دونه البلغاءُ[10]
حسدوا، فقالوا: شاعرٌ، أو ساحرٌ ... ومن السحود يكون الاستهزاءُ
قد نال (بالهادي) الكريم و(بالهدى) ... ما لم تنل من سُؤدد سيناءُ
أمسى كأنك من جلالك أمّةٌ ... وكأنه من أنسه بيداءُ
يُوحي إليك الفوزُ في ظلماته ... متتابعًا، تُجْلى به الظلماءُ
دينٌ يُشيّد آيةً في آية ... لِبناتُه السُّوراتُ والأضواءُ
الحقُّ فيه هو الأساسُ، وكيف لا ... وَاللهُ جلّ جلاله البنّاءُ؟
أما حديثُكَ في العقول فمشرعٌ ... والعلم والحكمُ الغوالى الماءُ[11]
هو صبغةُ الفرقان، نفخةُ قُدْسه ... والسين من سوراته والراءُ[12]
جرتِ الفصاحةُ من ينابيع النُّهَى ... من دوْحه، وتفجّر الإنشاءُ[13]

1-بنى بأهله: زف اليهم. وابتني: صار له بنون. 2- غضنفر: أسد والنكباء: ريح بين ريحين. 3- سطا: جمع سطوة. 4- نضا السيف من غمده: سله. والمهند: السيف المطبوع من حديد. 5- دان به: اتخذه دينا. 6-الباغي: الطالب والغناء: ما يغنى. 7- اللغى: جمع اللغة. 8- ذكاء: من أسماء الشمس. 9- حراء: الغار الذي كان يتعبد فيه النبي (ص) فيه الوحي. 10-أزرى به: عابه. 11- مشرع: مورد. 12- الصبغة: النوع. 13- الدوح: الشجر العظيم المتسع

في بحـــره للســـابحين به على ... أدب الحـــساة وعلمـــها إرســـاءُ
أتت الدُّهُور على سُلافـــته، ولم ... تفْنَ السُلافُ، ولا سلا النُّدماءُ[1]
بك يا ابن عبدِ الله قامتْ سمْحةٌ ... بالحقِّ من ملَلِ الهـدى غـرّاءُ[2]
بُنيتْ على التوحيـد، وهي حقيقةٌ ... نادى بهـا سُقـراطُ والقـدمـاءُ
وجدَ الزُّعـاف من السّمـوم لأجلها ... كـالشُّهـد، ثم تتـابعَ الشُّهـداءُ
ومشى على وجـه الزمـان بنورها ... كُهّانُ وادي النيـل والعُرفـاءُ[3]
إيـزيـسُ ذات الملـك حين تـوحّدتْ ... أخـذت قوامَ أمـورها الأشيـاءُ[4]
لما دعـــوت الناس لبّى عـــاقلٌ ... وأصمّ منـك الجـــاهلين نداءُ
أبواْ الخـروج إليك من أوهامـهم ... والناسُ في أوهامـــهم سُجناءُ
ومن العـقـول جـداولٌ وجـلامـدٌ ... ومن النفـوس حـرائرٌ وإمـاءُ[5]
داءُ الجـمـاعـة من أرسطاليس لم ... يوصفُ له حـــتى أتيتَ دواءُ
فـرسـمت بعـدكَ للعبـاد حكومـةً ... لا سُوقـةٌ فـيـهـا ولا أمـراءُ
اللّهُ فـوق الخلق فـيـهـا وحـدهُ ... والناسُ تحت لوائهـا أكـفـاءُ
والدّينُ يُسْرٌ، والخـلافـةُ بيـعـةٌ ... والأمـرُ شُورى، والحـقـوقُ قـضـاءُ
الإشـتـراكـيـون أنتَ إمـامُهم ... لـولا دعـاوى القـوم والغُلواءُ[6]
داويْتَ مُتّئِداً، وداوَوا طـفـرةً ... وأخفُّ من بعض الدواء الداءُ[7]
الحـربُ فَي حقّ لديك شـريعـةٌ ... ومن السُّموم الناقعـاتِ دواءُ[8]
والبـرُّ عندكَ ذمّـةٌ، وفـريضـةٌ ... لا منّةٌ ممنونـة وجـبـاءُ[9]
جـاءتْ فـوحّدت الزكـاةُ سـبـيلَه ... حـتى التّـقى الكرمـاءُ والبـخـلاءُ
أنصفتَ أهلَ الفقر من أهل الغنى ... فـالكل في حقّ الحـيـاة سـواءُ
فـلو أنّ إنســـانًا تخـــيّرَ ملّةً ... مـا اخـتـار إلاّ دينَكَ الفـقـراءُ

* * *

يأيهـا المُسـرى به شـرفًا إلى ... ما لا تنالُ الشمسُ والجوْزاءُ[10]
يتسـاءلون -وأنتَ أطهرُ هيكل- ... : بالروح أم بالهيكل الإسراءُ[11]
بهـما سـموْتَ مُطهّرَين، كـلاهما ... نورٌ وريحـانيّةٌ وبهـاءُ

1- السلاف والسلافة: أفضل الخمر. 2- السمحة: الملة التي ليس فيها ضيق. 3- العراف: المنجم، والجمع عرفاء 4- ايزيس: من آلهة المصريين القدماء. 5- الجدول: النهر الصغير، والجلمود ا: الصخر. 6- الغلواء: الغلو. 7- متئدا: متأنيا، وطفر: وثب. 8- الناقعات: القاتلات. 9- البر: الاحسان، وذمة: عهد، والمنة: العطية، والممنونة: المتبوعة بالمن.10- الإسراء: السير ليلا. 11- الهيكل الجسم والصورة والشمس.

فضلٌ عليك لذى الجلال ومنّةٌ ... واللهُ يفعل ما يرى ويشاءُ
تغشى الغُيوبَ من العوالم، كلّما ... طُويتْ سماءُ قُلدتْكَ سماءُ [1]
في كل منطقة حواشي نورها ... نونٌ، وأنت النقطةُ الزهراءُ
أنت الجمالُ بهاً، وأنت المجتلي ... والكفُّ، والمرآةُ، والحسناءُ
اللّه هيّأ من حظيرة قُدسه ... نزلاً لذاتك لم يَجُزْهُ علاءُ
العرشُ تحتك سُدّةٌ وقوائماً ... ومناكبُ الروحِ الأمين وطاءُ
والرُّسْلُ دون العرش لم يُؤذنْ لهمْ ... حاشا لغيرك موعدٌ ولقاءُ

* * *

الخيل تأتي غيرَ (أحمدَ) حامياً ... وبها إذا ذُكر اسمُه خُيَلاءُ
شيخُ الفوارس يعلمون مكانه ... إن هيّجت آسادَها الهيْجاءُ
وإذا تصدّى للضُّبي فمُهنّدٌ ... أو للرّماح فَصَعْدَةٌ سمراءُ [2]
وإذا رمى عن قوسه فيمينُهُ ... قدرٌ، وما ترمي اليمينُ قضاءُ

من كلّ داعي الحقّ همّة سيفه ... فلسيفه في الراسيات مضاء [3]
ساقي الجريح، ومُطعم الأسرى، ومن ... أمَنت سنابك خيله الأشلاء
إنّ الشجاعة في الرجال غلاظة ... ما لم تزنها رأفة وسخاء
والحرب من شرف الشعوب، فإن بَغَوا ... فالمجد مما يدّعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبُّرا ... وينوء تحت بلائها الضّعفاء
كم من غَزاة للرسول كريمة ... فيها رضى للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شدّة ... في إثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها ... فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام، وطالما ... حقنت دماء في الزمان دماء

الحقّ عِرض الله، كلّ أبيّة ... بين النفوس حِمى له ووفاء
هل كان حول محمد من قومه ... إلا صبيٌّ واحد ونساء؟
فدعا، فلبّى في القبائل عُصبة ... مستضعفون، قلائل، أنضاء [4]

1- غشى المكان يغشاه: أتاه. 2- الظبي: جمع ظبة، وهي حد السيف، والصعدة: القناة المستوية. 3- مضى السيف مضاء: قطع. 4- النضو: المهزول من الإبل وغيرها.

ردوا بباس العزم عنه من الأذى ... ما لا تردّ الصخرة الصماء
والحقّ والإيمان إن صُبّا على ... برد ففيه كتيبة خرساء [1]
فسفوا بناء الشرك، فهو خرائب ... واستأصلوا الأصنام، فهي هباء [2]
يمشون تُغضي الأرض منهم هيبة ... وبهم حيال نعيمها إغضاء
حتى إذا فُتحت لهم أطرافها ... لم يُطغهم ترف ولا نعماء
يا من له عزّ الشفاعة وحده ... وهو المنزه، ما له شفعاء
عرش القيامة أنت تحت لوائه ... والحوض أنت حياله السقّاء
تروي وتسقي الصالحين ثوابهم ... والصالحات ذخائر وجزاء
ألمثل هذا ذُقت في الدنيا الطّوى ... وانشقّ من خلق عليك رداء؟
لي في مديحك يا رسول عرائس ... تُيَمّن فيك، وشاقهنّ جلاء [3]
هنّ الحسان، فإن قبلت تكرّما ... فمهورهن شفاعة حسناء
أنت الذي نظم البريّة دينه ... ماذا يقول وينظم الشّعراء؟
المصلحون أصابع جُمعت يدا ... هي أنت، بل أنت اليد البيضاء
ما جئت بابك مادحا، بل داعيا ... ومن المديح تضرّع ودعاء
أدعوك عن قومي الضّعاف لأزمة ... في مثلها يُلقى عليك رجاء
أدرى رسول الله أن نفوسهم ... ركبت هواها، والقلوب هواء؟
متفكّكون، فما تضمّ نفوسهم ... ثقة، ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا، وغرّهم نعيم باطل ... ونعيم قوم في القيود بلاء

* * *

ظلموا شريعتك التي نلنا بها ... ما لم ينل في رومة الفقهاء
مشت الحضارة في سناها، واهتدى ... في الدين والدنيا بها السعداء
صلى عليك الله ما صحب الدّجى ... حادٍ، وحنّت بالفلا وجناء [4]
واستقبل الرّضوان في غرفاتهم ... بجنان عدن آلك السمحاء
خير الوسائل، من يقع منهم على ... سبب إليك فحسبي (الزهراء)

1- الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.
2- الهباء: الغبار.
3- شاقه الحب: هاجه.
4- الوجناء: الناقة الشديدة.

مفتتح

للشاعر: صلاح عبد الصبور

معذرة يا صحبتي؛ لم تثمر الاشجار هذا العام
فجئتكم بأردأ الطعام
ولست باخلا، وإنما فقيرة خزائني
مقفرة حقول حنطتي
معذرة يا صحبتي، فالضوء خافتٌ شحيح
والشمعة الوحيدة التي وجدتها بجيب معطفي
أشعلتها لكم
لكنها قديمةٌ معروقةٌ لهيبها دموع
معذرة ياصحبتي، قلبي حزين
من أين آتي بالكلام الفرح

أحلام الفارس القديم

لو أننا كنا كغصني شجره
الشمس أرضعتْ عروقنا معًا
والفجر روّانا ندى معًا
ثم اصطبغنا خضرة مزدهرة
حين إستطلنا فاعتنقنا أذرعا
وفي الربيع نكتسي ثيابنا الملونة
وفي الخريف، نخلع الثياب، نعري بدنا

ونستحم في الشتا، يدفئنا حنونًا
لو أننا كنا بشط البحر موجتين
صفّيتا من الرمال والمحار
توجتا سبيكة من النهار والزبد
أسلمتا العنان للتيار
يدفعنا منْ مهدنا للحدنا معًا
في مشية راقصة مدندنة
تشربنا سحابة رقيقة
تذوب تحت شمس حلوة رفيقه
ثم نعود موجتين توأمين
أسلمتا العنان للتيار
في دورة الى الأبد
من البحار للسماء
من السماء للبحار
لو أننا كنا نجمتين جارتين
من شرفة واحدة مطلعنا
في غيمة واحدة مضجعنا
نضئ للعشاق وحدهم وللمسافرين
نحو ديار العشق والمحبة
وللحزانى الساهرين الحافظين موثق الأحبه
وحين يأفل الزمان يا حبيبتي
يدركنا الأفوال
وينطفئ غرامنا الطويل بانطفائنا
يبعثنا الإله في مسارب الجنان درتين
بين حصًى كثير
وقد يرانا ملكٌ إذ يعبر السبيل
فينحني، حين نشُد عينه الى صفائنا

يلقطنا، يمسحنا في ريشه، يعجبه بريقنا
يرشقنا في المفرق الطهور

لو أننا كنا جناحيْ نورسٍ رقيق
وناعمٌ، لا يبرح المضيق
مُحلِّقٍ على ذؤابات السفن
يبشر الملاحَ بالوصول
يوقظ الحنينَ للأحباب والوطن
منقاره بقتات بالنسيم
ويرتوي من عرق الغيوم
وحينما يُجُنُّ ليلُ البحر يطوينا معاً.. معاً
ثم ينام فوق قلع مركب قديم
يؤانس البحارةَ الذين أرهقوا بغربة الديار
ويؤنسون خوفه وحيرته
بالشدو والأشعار
والنفخ في المزمار
لو أننا
لو أننا
لو أننا، وآه من قسوة «لو»
يا فتنتي، إذ افتتحنا بالمنى كلامنا
لكننا...
وآه من قسوتها «لكننا»
لأنها تقول في حروفها الملفوفة المشتبكه
بأننا ننكر ما خلّفَت الأيام في نفوسنا
نود لو نخلعه
نود لو ننساه

نود لو نُعيده لرَحِمَ الحياه
لكنني يا فتنتي مجربٌ قعيد
على رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامه
كونُ خلا من الوسامة
أكسبني التعيّم والجهامه
حين سقطتُ فوقه مطلع الصبا
قد كُنتُ فيما فات من أيام
يا فتنتي محاربا صلبا، وفارسا همام
من قبل أن تدوسَ في فؤادي الأقدام
من قبل أن تجلدني الشموس والصقيع
لكي تذل كبريائي الرفيع
كنت أعيش في ربيع خالد، أيَّ ربيع
وكنت إن بكيتُ هزني البكاء
وكنت عندما أحس بالرثاء
للبؤساء الضعفاء
أود لو أطعمتُهم من قلبي الوجيع
وكنت عندما أرى المحيرين الضائعين
التائهين في الظلام
أود لو يحرقني ضياعهم، أود لو أضيئ
وكنت إن ضحكتُ صافيا، كأنني غدير
يفترُّ عنْ ظل النجوم وجهه الوضئ
ماذا جرى للفارس الهمام؟
انخلع القلب للفارس هاربًا بلا زمام
وانكسرتْ قوادم الاحلام
يا من يدلُّ خطوتي على طريق الدمعة البريئة؟
يا من يدلُّ خطوتي على طريق الضحكة البريئة

لكَ السلام
لكَ السلام
أعطيك ما أعطتني الدنيا من التجريب والمهاره
لقاءَ يومٍ واحدٍ من البكاره
لا، ليس غيرَ «أنتِ» من يعيدني للفارس القديم
دون ثمنْ
دون حسابِ الربح والخساره
صافية أراك يا حبيبتي كأنما كبرتِ خارجَ الزمن
وحينما التقينا يا حبيبتي أيقنت أننا
مفترقان
وأنني سوف أظلُّ واقفاً بلا مكان
لو لم يعدني حبُّكِ الرقيقُ للطهاره
فتعرف الحبَّ كغصني شجره
كنجمتين جارتينْ
كموجتين توأمينْ
مثل جناحيْ نورسٍ رقيق
عندئذ لا نفترق
يضمنا معًا طريقْ
يضمنا معًا طريقْ

صلاح عبد الصبور

obeikan.com

obeikan.com

قصص

obeikan.com

obeikan.com

رسالة الغفران

مصطفى لطفي المنفلوطي

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها، ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة بأنواع من الخلق لا احصيهم عدداً، فعلمت أني بعثت، وانه يوم القيامة، فساورني من الهم ما ساورني حين ذكرت ان مقداره ألف سنة من سني القيامة، وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعًا، ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلاّ قيد ظفر، فتماسكت بضعة اشهر، ثم لم أجد بعد ذلك الى الصبر سبيلا، فزيت لي نفسي الكاذبة ان اذهب الى رضوان خازن الجنان، وكنت احمل شهادة التوبة في يدي لاسترحمه وألتمس منه الاذن بالدخول قبل انفضاض المحشر، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة باسمه كما كنت أرقي بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها، فما أبه ولا فهم كلمة مما اقول: فانصرفت عنه الى خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه؛ إلاّ أنه كان أرق منه وألين جانبًا، فأشار عليّ بالذهاب الى النبي الذي أتبعه، وأفهمني أن الأمر موكول إليه، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به، فبينما أنا اتخلل الصفوف، وازاحم الوقوف ، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم، وانعمت النظر فيه، فاذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي، واذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه، هذا يقول له: رويت بيتي على غير وجهه؛ وذاك يقول: أعربته على غير ما أردت وذهبت، فدفعني الفضول كما دفعهم الى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك، فقلت: قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب، إنها شؤم الآخرة والأولى.

وقفت أحير من ضب في حمارة قيظ لا أدري مآخذ، وما أدع، حتى رميت بطرفي فاذا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في لفيف من العترة الطاهرة النبوية فدلفت إليه وأبثثته أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال: لا عليك، ألك شاهد بالتوبة؟ قلت: نعم، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي، فقال: تريث قليلا حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها في أمرك، فهي تمت الى أبيها بما لا تمتُّ به وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء إلاّ أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها، ثم تعود الى مستقرها؛ فإنا لكذلك، واذا بمناد ينادي ان غضوا أبصاركم ياأهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، فهرعت إليها ،فرأيتها راكبة مع اخواتها وجواريها على أفراس من نور، وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري، فأنجز وعده، فقالت لأخيها ابراهيم: دونك الرجل، فقال: تعلق بركابي، فتعلقت، فطارت الافراس في الهواء تقطع الأجيال وتتخطى رؤوس القرون، حتى وافينا محمداً صلى الله عليه وسلم، واقفًا لشهادة القضاء، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحًا مستبشرا، وما كنت أقدر أن بين يدي عقبة الصراط، فلما وافيته وجدتني لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها أن تعبر معي فأمسكت بيدي، فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال، وخفت السقوط فقلت لها: احمليني زقفونة، فقالت: وما زقفونة؟ فقلت: أما سمعت قول الجحجلول من اهل كفر طاب:

صلحت حالني الى الخلف حتـــى صرت امشي الى الورا زقفونة

فقالت: ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب، فقلت: ألقي يدي فوق كتفيك، واجعل بطني الى ظهرك، فحملتني، وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف، حتى صرت الى باب الجنة، فرمت الدخول فوقف رضوان في وجهي وقال: أين جوازك فبعلت بالأمر؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على ان يعطيني منها ورقة أعود بها الى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى؛ فقلت، وقد ملك الهم على رشدي وصوابي: أما والله لو انك حارس على أبواب الكرماء، أو خازن لخزائن الملوك والامراء لما وصل شاعر الى درهم، ولا سائل

الى سحتوت، ولهلك الفقراء بؤسًا وجوعًا، فسمع ابراهيم عليه السلام حواري فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر الي شزراً فدخلت، فرأيت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

رأيت انهاراً من الماء العذب أصفى من أديم المساء، ولصقل من مرآة الحسناء، تنصب فيها جداول من الكوثر، اذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وامن ان يذوق كأس المنون مرة أخرى، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضا قد زينت حوافيها بأباريق من العجسد، وكؤوس من الزبرجد، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لاهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا يشوبها كدر، والنشوة التي يعقبها خمار ما باعوا قطرة منا بكل ما تشتمل عليه بابل وقطر بل من البواطي والدنان، ولو نظر الأقشير الأسدي بعين الغيب الى عجسد هذه الأباريق وزبرجد تلك لكؤوس لخجل من نفسه أن يوقل:

أفنى تلادي وماجمعت من نشب ... قرع القوازيز أفواه الأباريق

وفي تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور الكراكي والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها اسماك من الذهب والياقوت:

يعمن فيها بأوساط مجنحة ... كالطير تنشر في جو خوافيها

ورأيت آنهاراً من لبن، وانهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه إلاّ ادرك ما يمتص نحل الجنة من ازهارها وانوارها.

رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة، ثم تمثلت في نظري مصغرة، فاذا هي سطور من النور، وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء، قرأتها فرأيتها «مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آنس، وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين، وانهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات».

ظللت أمشي فلما أكاد اخطو خطوة حتى أرى منظراً عجبًا ينسي السابق، ويشوق الى اللاحق، فوددت لو طويت لي الارض طيًا فأتعجل النظر الى ما غاب عني من الجنة وبدائعها. فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت

بين يدي فرسًا من الجوهر المتخير مسرجًا ملمجًا فعلمت أني قد سعدت وأنها الأمنية التي كنت أتمناها، فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق من السحاب، والسيف من القراب، وعلى ما جهدته لم يشك اليّ ما شكاه جواد عنترة العبسي اليه في قوله:

فازور من وقع القنا بلبـــــانه وشكا اليّ بعبرة وتحمحـــــم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله:

تشكي الكميت الجري لما جهدتـ ـــــه وبين لو يستطيع أن يتكلما

ذكرت أني، وأنا في الدار الفانية كنت اسمع بذكر الذاهبين الأولين من الأدباء والشعراء والرواة، فآسف على أن لم اكن في زمنهم آراهم واحضر مجالسهم، فقلت ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار، وهل سعدوا أو شقوا، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء، مالم يقيض في دار الفناء؟

ثم رميت بطرفي فاذا فارس يحضر فرسه في الهواء إحضاراً حتى يتقاربنا فتماست الركب واختلفت الأعناق، فقال: انتسب، فقلت: فلان، ومن انت يرحمك الله، وقد فعل؟ فقال: عدي بن زيد العبادي، فدهشت وقلت: عدي ابن زيد في الجنة بعد الزيغ والضلال؟ فقال انا عيسوي، وانت محمدي، وليس لصاحبك على احد حجة إلاّ بعد ظهوره، وبلوغ دعوته، فقلت: لا نكران؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، واين استهتارك في قولك:

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق
ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت قينتي يمينها إبريق

قال: غفر الله لنا ما غفر لكم، قلت: هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله ان أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة! فقال: اصحبني، فطارت بنا الخيل، فقلت له: هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لي عضداً أو ساقًا؟ فتبسم، وقال: أين يذهب بك؟ نحن في دار الخلود والبقاء.

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع كثير على سرر متقابلين، أو على الأرائك متكئين، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هوية، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا، ثم اخذوا فيما كانوا فيه، فاذا الأصمعي ينشد مروياته، وابو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان، وإذا سيبوية والكسائي متصافيان بعد ان وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع، وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من المودة ما كان يضمر، واخذت تهب من ناحية النهر نفخة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون:

مثل ريح المسك ذاك ريحها

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه، وقلت في نفسي: لو لا أن قريشًا صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا، فسمعت هاتفًا من ورائي يقول:أنا بينكم، وفي مجلسكم، فالتفت فاذا الأعشى ميمون، فلم أدر من أي مدخليه أعجب، أمن مدخله الى الجنة؟ أم من مدخله الى نفسي، وعلمه بما هجس في صدري؟ فعلمت ان أهل الجنة ملهمون، ثم سألته: كيف غفر لك؟ فقال: سحبتني الزبانية الى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلا يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد، فأخذت أخذهم، وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه، فدنوت فسألني: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيهذا السائل أن يمت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فأليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن ... تراحى وتلقى من فواضله ندا
هاشمنبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا

فقال: ما سمعتها منك قبل اليوم، فقلت: خدعتني عنك الناس بعدما شددت راحلتي اليك، وكنت احب الشراب وخفتك عليه ان تفرق بيني وبينه، فشفع لي، فدخلت الجنة على ألا أذوق فيها الخمر، فقنعت بالرضاب عن الشراب، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود، ورأيت بجانبه شابًا ريق الشباب، فسألت عنه فقيل لي: زهير بن أبي سلمى، فما كدت اصدق انه القائل:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

فقلت له: بم غفر اللّه لك؟ فقال: كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد، وأتمنى البقاء حتى أراه، فحال بيني وبينه الموت؛ فأوصيت به ابني كعبًا وبحيراً وكنت أؤمن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتمن اللّه ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم اللّه يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب أو يقدم فينتقم

وإلى جانب زهير، عبيد بن الأبرص، فسألته عن مصير أمره؟فقال: كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي:

من يسأل الناس يحرموه وسائل اللّه لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئا فشيئا حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم الى النعيم.

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا الى إرتشاف الخمر من النهر، في آنية الدر، فانتشينا جميعًا فما افقنا إلاّ على حفيف رف من إوز الجنة نزل لنا، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف، والهزج، فما أتين على الالحان الثمانية حتى دارت بنا الارض والفضاء، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير بالهموم، وقلنا: لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه، لقرع السن على ان باع دينه بسرور محدود وانس معدود، ودف وعود.

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى: «فاطلع فرآه في سواء الجحيم» فتمنيت ان أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين؛ فألهمت الإذن؛ فأشرت لصاحبي فقام وقمت، وركبنا فرسينا فطارتا بنا حتى انتهيا الى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخًا يسكنه شيخ زري الهيئة، فأشرفنا عليه فقال: لا تعجبوا لشأني، أنا الخطيئة.. فواللّه لو لا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي:

أرى وجهًا شوّه اللّه خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة.. ولما أدركت كوخًا ولا حجراً؛ فتركناه.. وطلعنا، فما رآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد «ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللّه» فرأينا ملوكًا وأكاسرة يتضاغون في السلاسل والاغلال ويقولون: «ربنا ارجعنا

نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل» فيهتف بهم هاتف «او لم نعمركم؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير».

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فاذا هي الخنساء، تطلع مثلنا فترى رجلا كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار، فتمتعض وتقول: يا صخر... هذا تأويل قولي فيك من قبل:

وإن صـــخـــراً لتـــأتم الهـــداة بـه كـــأنه علم في رأســـه النار

ورأيت هناك كثيراً من امثال أمرئ القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، ورأيت بشار بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله، وقال له ما كنت لأدخل النار لو لا قولي فيك:

أبليس افـضل من أبيكم آدم فـتـبـينوا يا مـعـشـر الأشـوار

النار عنصـره وآدم طينة والطين لا يسـمـو سـمـو النار

وجزعنا من النظر فهممنا بالرجوع.. واذا بإبليس يهتف بنا: يا أهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أني لم ادخل النار بسببه حتى اخذت معي اكثر ولده وأفلاذ كبده، فلا يهنأ كثيرا بمصيري، فقلنا: قبحه الله، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم، فما كان همّ بعد رجوعنا إلاّ أبينا آدم عليه السلام.. فتلقيناه.. فبلغناه الرسالة، فقال: وارحمتاه له، ما كان بينه وبين الإيمان إلاّ القليل فأراده الحسد فكان من المهلكين.. فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير.. وحور وولدان، كأنهم الياقوت والمرجان، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله.

مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات

العصفور والسلك*

د. يوسف ادريس

اختار أعلى بقعة وحط كانت سلكا. مكانا بين عمودين من سلك تيلفون. مخالبه تشبثت برفق، هبت الريح وصفر السلك، تمايل برفق. تشبث أكثر. هو لايكف عن الحركة، والحركة عنده مفاجئة، فجأة تأتي. فجأة تحدث. فجأة تبلغ أقصى المدى. فجأة شقشق فجأة تلفت. فجأة رفرف. فجأة صوصو. انتشى فجأة. طار. حام. حوم. حط. تشبث. تلفت. على مقربة لمح الأليفة. رفرف. رفرفت. اقترب. اقتربت. صوصو. شقشقت. حك المنقار بالمنقار. حكت. أمال رأسه. أرقدت رأسها فوق رأسه. انتشى نط. بالقفزة أحب بالقفزة هبط. بالنشوة تبرز. بصقة براز أبيض لونت السلك.

السلك صدئ. قديم. غير سميك. يحمل في هذه اللحظة بالذات، وفي نفس الوقت، سبع مكالمات معا. لاشيء في الظاهر يحدث، في الداخل تدور عوالم وأكوان. سلامات، احتجاجات، تحيات، صفقات، وداعات، استغاثات، أرض تباع، بلاد تباع، أصوات غلاظ، صوصوات رقيقات، تختلط الكلمات، تتمازج، تتوحد، كلها في النهاية تصير، ماديا، الكترونات. شحنات متجانسات، متشابهات، كلمة الحب لها نفس شحنة البغض. كهارب الصدق كهارب الكذب، الصراحة كالنفاق، اللوعة كاللعنة، الليل كالصبح كالنهار، الصراحة كالنفاق، اللوعة كالخيانة كالكفاح، البطولات كالنذالات. كلمات. شحنات. الكترونات متحفزات متحركات. في ومضة بحركتها تتغير مصائر،تجهز مشاريع وتتم موافقات، وتبرم صفقات، وتدبر مؤامرات، بالكلمات، بنفس الكلمات الطيبات.

والسلك قديم، صدئ، صامت، داكن، لا ينم مظهره عن شيء مما في داخله يعتمل ويدور، ولا يبدو منه أو عليه أقل تغيير، مستمر في وجوده الظاهر الطويل الممتد.

والعصفور متشبث بالسلك، بمخالبه البريئة يمسك بهذا كله ويحتويه، في ملكوته الخاص يحيا، لا يدري حتى بان السلك سلك، بله بأن ما يسرى فيه يسري فيه. ان هو الامكان عال للوقوف، وقوف كلما فرغ صبره منه، فجأة يتقافز، يرفرف، يشقشق،يطير،يحوم،بالقفزة يزاول مع وليفته الحب،وبنفس القفزة يهبط، وبالنشوة يصوصو، وبالنشوة خالى البال يتبرز، بصقة براز صغيرة بيضاء، على السلك، نفس السلك، كالزمن، كالصدا تتراكم.

---

* كتبت في مايو 1970 ولم تنشر.

obeikan.com

obeikan.com

دراسات

obeikan.com

obeikan.com

الشرق الفنان*

نظرة الشرق هي في جوهرها نظرة الفنان، تمس الأشياء مسا مباشرا يهز الوجدان، ولا تبعد عن الأشياء بالتحليل والتجريد اللذين هما من وظائف العقل المنطقي الصرف، وهي نظرة ترى الكائن الواحد في مجموعه كأنه حقيقة واحدة، لا بعناصره التي ينحل إليها ويتألف منها، ثم هي نظرة سرعان ما تهتدي إلى الوحدة التي تضم شتى الكائنات في كائن واحد يطويها في ذاته فإذا هي جزء منه: فمهما يكن من أمر هذه الكثرة الكثيرة التي تراها أعيننا هنا وهناك في أرجاء المكان، فالحقيقة واحدة لا تعدد فيها.

والطابع الذي يميز هذه النظرة الجمالية للوجود، فيميز بالتالي ثقافة الشرق، إنما يتمثل في الأسفار الدينية وفي الكتب المنزلة التي أراد الله أن يوحي بها في بقاع الشرق المبارك؛ فمن هذه الأسفار والكتب انبثقت نظرة الشرقي إلى الحياة وإلى الفن وإلى الدنيا وإلى الآخرة؛ ومن لم يتمثل الروح المنبثة السارية في هذه الأسفار والكتب، بحيث يمزجها بنفسه مزجا، فلا أمل له في معرفة صحيحة عن الشرق وثقافته، حتى لقد قيل إن تفهم هذه الأسفار والكتب ليغنى الغريب عن السفر إلى الشرق والعيش فيه بين أهله وبنيه، لأنه إن أدركها تمام الإدراك، فقد أدرك تلك الوحدانية الصوفية التي تدمج الكون في كائن واحد على اختلاف ما فيه من كائنات، أو التي تجعل للكون ربًا واحدا على تعدد ما فيه من أشياء وأحياء، وأما من لم يستطع أن يتمرس هذه الخبرة الروحانية في حياته وفي فلسفته، فهو أبعد ما يكون عن روح الشرق ولو عاش في ربوعه طيلة حياته.

نعم إ ن هذا بعينه يصدق على كل ثقافة غير الشرق، فحسبك ان تدرس وتتمثل ذخيرة الغرب الفكرية لتصبح ذا نظرة غربية الي دنياك؛ ولكنه أصدق بالنسبة إلى الشرق منه بالنسبة الى الغرب؛ لأن ثقافة الشرق -كما أسلفنا-

* من كتاب الدكتور زكي نجيب محمود: الشرق الفنان.

معتمدة على اللمسة الفنية والخبرة الذاتية الباطنية، وثقافة الغرب أقرب الي النظرة العلمية؛ واللمسة الفنية مستحيلة على من لم يمارسها لمسا مباشرا، كما يستحيل على من لم يذق لونا من الطعام أن يعرف كيف يكون طعمه على ذوق اللسان، وأما النظرة العلمية فتوقف صاحبها على مبعدة من موضوع بحثه؛ فليس به حاجة؛ -مثلا- إلى أن يرى الضوء بعينيه ليفهم قوانين الضوء في علم الطبيعة.

ففي مصر القديمة كان الدين -والدين خبرة ذاتية لا صيغة رياضية نظرية- عماد الحياة ومحور الأدب والفن وأساس النظام الإجتماعي كله؛ وقد كانت عقيدة المصري أن بداية الخلق هي السماء؛ ولكنه لم يصور لنفسه هذه السماء وأجرامها تصويرا يحولها الى مسافات وأبعاد فلكية يقيسها القياسون ويحسبها الحاسبون؛ بل تصورها قبة تقف في فضائها الرحيب بقوة عظيمة أقدامها مرتكزة على الأرض وبطنها هو الذي تراه مزدانا بآلاف النجوم الساطعة؛ وبهذه الصلة بين الأرض والسماء عن طريق البقرة الثرة الولود، ولدت الأشياء جميعا.. فماذا تكون هذه النظرة إن لم تكن نظرة الفنان؟

ونظر المصري الى الحياة فلم تتحول في عينيه «بيولوجيا» تخضع لتجارب العلماء، بل نظر إليها فإذا هي حقيقة متصلة واحدة مقدسة أصولا وفروعا؛ فمصدر الحياة مقدس نباتا كان أو حيوانا، فالنخلة الشاهقة المثقلة بثمارها والوارفة بظلها في قلب الصحراء، والجميزة التي تزدهر وتترعرع في الرمال، والماء الذي يسقيهم، كلها قمينة بالقداسة والتوقير.. ألا ماأجمل أن ترى القروي حتى يومنا هذا ينحني لقطعة الخبز إذا وجدها ملقاة في عرض الطريق، فيقبلها ثم يضعها في حضن الجدار بمأمن من أقدام السائرين؛ لأن لقمة الخبز نعمة الله إذ هي من مقومات الحياة.

والمغرور من الناس هو الذي ينظر الى صنوف الحيوان والطير، فلا يلمس فيها رابطة الحياة التي تؤاخي بينه وبينها؛ فلا غرابة أن يهتدي المصري بوجدانه الحي الحساس إلى توقير هذه الأسرة الكبيرة بمختلف أفرادها توقيرا بلغ حد التقديس.

على أن ماهو أقرب صلة بموضوعنا، عقيدة المصري في الخلود؛ فهاهو ذا النيل يغيض ثم يفيض بالحياة، وهاهو ذا النبات يذبل ويذوي مع الخريف والشتاء، ثم يحيا ويزدهر مع الربيع والصيف؛ أفيكون الخلود مكتوبا للماء والنبات ولا يكتب للإنسان؟ كلا! بل إنه ليعود الى الحياة بعد موت، يعود ليحيا حياة الخلود في فردوس السماء، على شريطة ألا يكون قد اقترف في حياته من الإثم ما يستلزم بقاء جسده في قبره ضمآن جائعا؛ ولقد أعد مركب للصالحين يعبر بهم إلى حيث الجنة الأبدية، لكن أحداً من الناس لا ينزل هذا المركب إلاّ بعد حساب يؤديه له «أوزيريس» بميزان، فيضع قلبه في كفة ويضع ريشة خفيفة في الكفة الأخرى، حتى إذا ما تعادلا كان جزاؤه العبور الى جنة الخلد... فماذا تكون هذه الصورة إذا لم تكن من لمسة الفنان؟

واستمع إلى هذا الدعاء يخاطب به الإنسان قاضيه الإلهي عند لقائه -وهو من المجموعة الكبيرة من الأدعية والصلوات والتعاويذ التي يطلق عليها إسم «كتاب الموتى»-:

يا من يكمن في كل خفايا الحياة
ويا من يحصى كل كلمة أنطق بها
انظر! إنك تستحي مني، وأنا ولدك»
وقلبك مفهم بالحزن والخجل،
لأني ارتكبت في دنياني من الذنوب ما يفهم القلب حزنا
وقد تماديت في شروري واعتدائي
فعفوك اللهم عفوك
حطم الحواجز القائمة بيني وبينك
وامح اللهم أثامي عن يمينك وشمالك

* * *

أو إستمع إلى هذا الدعاء يخاطب به الإنسان قاضيه الإلهي ليثبت له براءته من الذنوب:

سلام عليك أيها الإله العظيم، رب الصدق والعدالة! لقد وقفت أماك يارب، وجئ بي لأشهد جمالك... جئت إليك أحمل قول الصدق.. إني لم أظلم الناس..

لم أظلم الفقراء.. لم أفرض على رجل حر أكثر مما فرضه هو على نفسه.. لم أهمل ولم أرتكب إثماً بغيضاً لدى الآلهة، ولم أكن سبباً في أن يسيء السيد معاملة عبده، لم أمت أحداً من الجوع، ولم أبك أحداً، ولم أقتل أحداً، ولم أخدع أحداً... لم أطفف الكيل ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع... أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر.

على أن المصري القديم قد بلغ من نظرته الروحانية الفنية ذروتها في شخص إخناتون، الذي ربما كان أول إنسان في الوجود أدرك وحدانية الوجود، أدركها بالبصيرة لا بالبصر، أدركها بخفقة الوجدان لا بالقياس العقلي، أدركها بطويته لا من خارج، أدركها بالروح لا بالبدن، أدركها إدراك الفنان لا إدراك العالم، وهاك ترنيمة من ترانيمه الخالدات، لترى هل ينطق بمثل هذا الكلام إلاّ شاعر فنان؟

قال يخاطب الشمس رمز الإله الواحد، ومصدر النور والحياة:

«ما أجمل مطلعك في أفق السماء! إيه يا منشئ الحياة. ويا مخرج الأحياء، إنك إذا أشرقت ملأت الأرض جمالا من جمالك، فأنت الجميل العظيم المضئ المتعال، يحيط شعاعك بالأرض وما عليها من خلائقك التي ربطتها جميعاً بآصرة من حبك، فمهما نأيت غمرت الأرض بنورك، ومهما علوت ألمت أطرافك بالأرض لألأة باشراق الضحى.

إنك حين تغرب يكتنف الأرض ظلام كالموت، ويأوي الناس إلى مخادعهم، معصوبة رؤسهم، مسدودة خياشيمهم، لا يرى أحد منهم أحداً... وعندئذ يخرج الأسد من عرينه وتلدغ الأفعى، وتسكن الدنيا سكوناً لا حراك فيه.

ألا ما أبهى الأرض حين تشرق أنت في الأفق فتضيئها بنورك يا مصدر النور، فتمحوا آية الظلام... ويستيقظ الناس وينشطون، فيغسلون أجسادهم ويرتدون ثيابهم، ويرفعون أيديهم تمجيداً لطلعتك.

عندئذ تنشط الدنيا بالعمل، وتستريح الأنعام في مراعيها، ويزدهر الشجر ويورق النبات، ويرفرف الطير في مناقعه باسط الجناحين تسبيحا بحمدك، وترقص الأغنام نشوانه ويطير كل ذي جناحين، إنها كلها لتحيا بإشراقك عليها.

وبإشراقك تقلع السفائن رائحة غادية، وتثب الأسماك في أنهارها، ويتلألأ بشعاعك البحر العظيم الأخضر.

يا خالق الناسلة في المرأة، ويا صانع النطفة في الرجل، ويا واهب الحياة للجنين في بطن أمه، تهدهده فلا يبكي، وتغدوه وهو في الرحم، ويا واهب الأنفاس ويا محرك العباد؛ إنه إذا ما خرج الوليد من بطن أمه، فرجْت شفتيه لينطق، وسددت له حاجته.

إنك أنت واهب الحياة للفرخ في بيضته، وحافظ له حياته حتى يخرج منها مغرداً بكل قوته، ماشياً على قدميه منذ اللحظة الأولى.

* * *

زرقة المساء وصفرة الصحراء، هكذا رأى المصري بلاده نورا على نور، فأقام شوامخ الأهرامات والمعابد وسوامق المسلات والتماثيل، ليصل بين النورين؛ وجاشت نفسه بما لمسه في الطبيعة كلها من حوله، من صمت رهيب، فتكلم معبراً عما جاش في نفسه، تكلم بلغة الحجر الأصم تماثيل تراها على اختلاف عصورها ذات طابع واحد، هو طابع الجلال الهادئ الرزين الرصين؛ تراها فتحسها الرهبان قد ملأتهم السكينة والرضا وترى على شفاهما بسمات خفيفات هامسات فيها معنى الإشفاق على من ألهته دنيا العوابر والزوائل -هذا الإيمان الصابر، هذا الجلال الصامت، هو المصري من أوائل عصوره حتى اليوم، وإنما اكتسب المصري القديم فنه من عقيدته، ثم استمد حِكمته من فنه، وكلها جوانب من نفسه نشأت حين لمس الوجود لمسة الروحاني الفنان.

وانظر الى التصوير المصري على جدران المعابد، انظر اليه نظرة الفاحص المتأمل، واعجب أن يمضي على هذا التصوير ثلاثون قرنا أو يزيد، وإذا بالفنان المعاصر -فنان القرن العشرين- يعود القهقري مع القرون، ليجعل مبادئ فن التصوير كما عرفه المصريون هي المبادئ التي يثور بها على الفن الأوربي التقليدي، ثم يجعلها هي نفسها المبادئ التي يحتذيها ويسير في فنه الحديث على نهجها.

ذلك أن المصور المصري كان يرسم شخوصه مسطوحة ذات بعدين، ويهمل البعد الثالث الذي من شأنه أن يظلل الرسوم ليجسمها فتصبح على اللوحة كما هي قائمة في عالم الواقع؛ أقول إن الفنان المصري كان يهمل البعد الثالث، لا

جهلا منه بقواعد المنظور في الرسم، بل إدراكا منه بجوهر الفن الأصيل، وهو ألا يحاكي الفنان بفنه موجودات الطبيعة الخارجية محاكاة تجعل اللوحة الفنية صورة تطابق الواقع كما يعرفه الإنسان بعقله، لا كما ينطبع ذلك الواقع على حواسه؛ فأنت إذ ترى رجلا قائما أمامك على مقربة أو على مبعدة، إنما ترى منه في حقيقة الأمر مسطحا ملونا، فإذا قدرت لنفسك بعد ذلك أنه جسم ذو أبعاد ثلاثة: طول وعرض وعمق، فإنما تضيف العمق من خبرة أخرى غير الخبرة المباشرة التي تنطبع علي شبكية العين عند الرؤية؛ ولقد أراد الفنان المصري أن يكون أمينا في فنه مخلصا لحواسه، فأثبت على لوحاته رسوم الأشياء وفق إدراك الحس لها لا وفق حساب العقل؛ وهاهم أولاء قادة الفن في عصرنا الراهن «بيكاسو» و «جوجان» و«ماتيس» وغيرهم، يثورون على التقليد الذي كان قائما في الفن الغربي منذ النهضة الأوربية في القرن السادس عشر، ويستلهمون الفن القديم في مبادئه، لأنه أقرب الى الخلق الفني بمعناه الصحيح.

وكذلك لم يكن الفنان المصري -إذ يضع على لوحة عدة أشياء، بعضها قريب منه وبعضها بعيد عنه- لم يكن ذلك الفنان يعبأ عندئذ بقواعد المنظور، من حيث تكبير القريب وتصغير البعيد، بل كان يضع أشكاله كلها في حجم واحد رغم تفاوتها في البعد بعضها عن بعض، فتراه يرصها جنبا الى جنب، أو يضعها فوق بعض، كأنما هي كلها في مستوى واحد، ثم لم يكن يعبأ أيضا برسم المحيط الذي تكون تلك الأشياء موضوعة فيه، فلا منظر من مناظر الطبيعة، ولا جدران غرفة ولا أرضية بأي معنى من المعاني.. وهو هاهنا أيضا لم يكن جاهلا بقواعد المنظور، بل كان على وعي كامل بأنه فنان حر في وضع أشيائه، ولا إلزام عليه بأن يجعل صورته تنطق بالمحاكاة الدقيقة للطبيعة كما هي قائمة.

وانظر آخر الأمر كيف كان يرسم الفنان أشخاصه: فالوجه جانبي ولكن العين مرسومة كاملة على الجانب الظاهر، والصدر متجه كله الى الأمام، غير ملتفت الى جانب مع اتجاه الوجه، ثم القدمان متجهان الى جانب، على غير اتساق بينهما وبين اتجاه الصدر، ولا مانع عنده من أن يجعل الفخذين ظاهرين كأنهما عاريتان، مع أنه يلفهما بالرداء، فهو يضع الثوب على الجسم، ثم يتجاهل وجوده

ليظهر ما تحته، وهكذا وهكذا من ألوان الخروج على قواعد المنظور، لماذا؟ لا لأن الفنان جاهل بتلك القواعد، بدليل أنه يراعيها كلما أراد ذلك، إنما هو يصدر عن مبدأ فني أصيل، وهو أن يبرز «الشكل» (الفورم) على أكمل وجوهه، فخير شكل يبدو عليه الوجه هو الجانب، فيرسمه ملتفتا إلى جانب، وخير شكل تبدو عليه العين هو أن تكون شاخصة كلها الى أمام، فيرسمها بأكملها على جانب الوجه رغم قواعد المنظور، وخير شكل للجذع هو أن يكون متجها إلى أمام، فليكن كذلك، سواء وافق هذا الوضع وضع الوجه الجانبي أو لم يوافقه، وخير شكل للقدمين هو حين تكون جانبية ليراها الرائي كاملة، وإذن فلتكن كذلك في الصورة، ولا عبرة باتفاق وضعهمامع وضع الصدر والوجه والعين، ثم لماذا يجعل الثوب يخفي الفخدين مادام هدفه هو أن يبرز شكل الفخدين في استدارتهما واستقامتهما، فليس الأصل عنده هو أن يحاكي الواقع على حقيقته، بل الأصل هو أن يوضح الأشكال في أجمل صورها... ليس الفنان آلة تصوير تنقل عن الطبيعة وهي صماء بكماء، فتنقلها كما هي، بل الفنان إنسان خلاق يتصرف في خلقه الفني كما يهديه ذوقه وفطرته، ولقد كان الفنان المصري أول من عرفته دنيا الفنون أو يكاد، لكنه كان من سلامة الذوق والفطرة بحيث استطاع أن يقع على المبادئ الفنية التي غفلت عنها القرون الطويلة بعدئذ، حتى جاءت بعض مدارس الفن المعاصرة فالتقطت أطراف الخيوط من جديد لتستأنف السير في طريق شقها ذلك الفنان الأول.

د. نجيب محمود

الإسلاميات.. معناها وأسبابها

الأستاذ: سامح كريم

من كتاب إسلاميات:

العقاد

طه حسين

هيكل

أحمد أمين

من الأمور الشاقة التي كانت تواجه الباحث في تاريخ العرب -أسلوبهم في كتابة هذا التاريخ.. فقد درج العرب على كتابة حوادثهم في حوليات. فيذكرون الأحداث في شتى نواحيها.. يختلط فيها الدين بالعلم والأدب والسياسة والشعر. ولعلهم اعتبروا الإحاطة بكل هذه الجوانب دليل مقدرة، لذلك تصوروا الأدب مثلا هو الأخذ من كل شيء بطرف.. فنرى الجاحظ يكتب في «البيان والتبيين» تفسير آية الى جانب حكاية الى جانب قصيدة شعرية الى جانب رأي لصاحب المنطق.. وهكذا استطردات لا يجمعها خط واحد أو تصنيف واحد.

لهذا كانت مهمة الباحث الحديث شاقة عسيرة، تحتاج الى إحاطة شاملة بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب واجتماع وفلسفة وعلم وكلام وتصوف.

وأصعب من هذه المهمة.. مهمة القارئ لهذه المادة، فقراءتها عسيرة، وفهمها أعسر، وتذوقها أشد عسرا.. فأين هذا القارئ الذي يطمئن الى قراءة الأسانيد المطولة، والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد، وتجور بها لغتها القديمة على الفهم السهل، والذوق الهين، الذي لا يكلف الناس مشقة ولا عناء؟

وأين هذا القارئ -وبخاصة في زماننا هذا- الذي يحيط بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وتصوف الخ.. لكي يقرأ خبرا من أخبار العرب الأقدمين أو يقف على واقعة حدثت في الماضي البعيد؟

وأين هذا القارئ النهم الذي يملك من الوقت ما يسمح له بالبحث في المتون والأسانيد والحوليات عن قصة من القصص جاء ذكرها في العصر القديم ويريد الإستمتاع بقراءتها أو الرجوع إليها؟.

وأين هذا القارئ الذي يفضل قراءة التاريخ العربي بهذه الصورة التي بلغ فيها التعقيد شأنا عظيما، على قراءة تواريخ الأمم الأخرى بصورة مبسطة غير مستغلقة على فهمه او حتى تاريخنا العربي نفسه بأقلام مستشرقين ومبشرين استطاعوا أن ينفذوا الى هذه المادة التاريخة ليأخذوا منها ما يريدون ثم يدسوا فيها ما يشاء لهم الدس بأسلوب مبسط بالنسبة للقارئ؟.

وهنا برزت الحاجة الى إعادة كتابة تاريخنا الاسلامي من جديد ورسم صورة أعلامه كالنبي صلى الله عليه وسلم ورجال الصدر الأول من الإسلام.. من خلفاء وقادة وفلاسفة وعلماء، وكذلك كتابة دراسات وأبحاث عن الدولة الاسلامية: نشأتها وتطورها.. ماضيها وحاضرها.. ولك هذا على النحو الحديث في طريقة العرض والتحليل، ووضع الأفكار غير ملفوفة برداء من الغموض يحجبها عن الباحث أو القارئ.. فلا ينصرف أحدهما عن هذه المادة أو يفضل غيرها.

ولعل هذا ما تنبه إليه الإمام محمد عبده حين أخذ على عاتقه مهمة البعث الجديد لتاريخ الإسلام وجلاء صورته.. فكانت كتاباته بمثابة الصورة المثلى لما يكون عليه الأسلوب من الدقة والوضوح، كما كانت في نفس الوقت الرد المفحم على خصوم الاسلام هؤلاء الذين تقيدوا للهجوم على الإسلام ونيته. وكان في مقدمة ما هاجموه هو أسلوب المسلمين الأوائل في تاريخ أحوالهم، وهو ما تعرضنا له في السطور السابقة.

على أن الشيخ محمد عبده لم يكن هو أول من كتب في الإسلام على الطريقة الحديثة، وإنما كان هناك أستاذه الشيخ جمال الافغاني، وعبد الرحمن الكواكبي. ومن بعد هؤلاء جميعا جاء محمد رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي،

فأعطوا المادة الإسلامية شطرا من إهتمامهم وعنايتهم. وتحدثوا عن الاسلام دينا ونظاما ورجالا على النحو الحديث.

إلاّ أن الإهتمام بكتابة التاريخ الاسلامي قد توقف فترة إلى أن بدأ واضحا قويا في ثلاثينات هذا القرن، فصدر في أقل من عام أكثر من عشرين كتابا في الاسلام وبالتحديد عام 1935. وهذه الكتب سلكت المنهج الحديث في كتابة التاريخ.. وفي مقدمتها: «الإسلام والحضارة» للأستاذ محمد كرد علي، «ضحى الإسلام» لدكتور أحمد أمين، «على هامش السيرة» للدكتور طه حسين، «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وترجمة كتاب «الإسلام والتجديد» للأستاذ عباس محمود، وهو بالطبع غير عملاق الفكر العربي عباس محمود العقاد الذي بدأ كتابة موسوعته الإسلامية الضخمة في أربعينات هذا القرن. وغير هؤلاء ممن قدموا كتابات وصل تعدادها- كما قلنا إلى أكثر من عشرين كتابا.

وصدور هذا العدد من الكتب التي تعالج الإسلام نظاما ورجالا ودينا في أقل من عام.. يعتبر في حد ذاته ظاهرة إجتماعية تستحق البحث والدراسة، خاصة وأنه لم يكن هناك قبلها اهتمام يذكر اللهم هذا النذر القليل الذي يخرج في صورة كلمة أو مقالة أو على أكثر تقدير بحث إلى جانب ما يخرج بالطبع من كتب بالطريقة القديمة.

وما يزيد هذه الظاهرة استحقاقا للبحث والدراسة أن معظم مؤلفي هذه الكتب الحديثة لم يكونوا من رجال الدين المتفرغين للكتابة في المسائل الدينية، والذين لا يستغرب منهم الكتابة في هذا الميدان. ولكن الغريب أن من أقبل على طرق هذه الموضوعات الدينية.. لم يكونوا من المتخصصين. وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين، والدكتور محمد حسين هيكل، والدكتور أحمد أمين والاستاذ عباس محمود العقاد وهم الأربعة الذين نعرض لكتاباتهم هنا في الإسلام، والتي عرفت فيما بعد بالإسلاميات.

وهذه الإسلاميات التي برزت في ثلاثينات هذا القرن نوع من الكتابات الإسلامية تجمعت لمفكر واحد كتبها وفق منهج علمي في البحث... وذلك من حيث العرض والتحليل والاستقصاء. وفيها جلاء لصورة الإسلام نظاما ودينا

ورجالا. وهي الى جانب هذا كله تقديم لحقائق الإسلام.. تلك التي تبطل إفتراءات خصومه.

وانصراف هؤلاء الكتاب الأربعة غير المتخصصين في الكتابات الدينية إلى هذا النوع من الكتابات لابد أن يكون له أكثر من دلالة.

والحق أنه كان هناك بالفعل أكثر من سبب وأكثر من عامل دفع هؤلاء الكتاب الأربعة للكتابة في الإسلام ومن هذه العوامل والأسباب:

أولا- إزدياد نشاط الحركة التبشيرية التي تناقلت الصحف يومئذ أخبارها في ثلاثينات هذا القرن، وكانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة هي مصدر هذه الدعاية التبشيرية، وكان غريبا حقاً هذا النشاط الذي أبداه المبشرون والذي لم يسمع بمثله من عشرات السنين فقد إمتد من القاهرة الي بورسعيد وإلى غيرها من المدن، وقد أسهبت صحف ذلك الوقت في وصف وذكر الإغراءات المادية التي لجأ إليها المبشرون لحمل السذج على إعتناق غير الإسلام. ولقد كان الأربعة «طه حسين ومحمد حسين هيكل، وعباس محمود العقاد، وأحمد أمين» من أشد الناس تحمساً لمقاومة هذا التبشير إقتناعا منهم بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما في النفوس من ثقة بدين الدولة الرسمي، ولما تنطوى عليه من قصد سياسي وهو إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته بالإضافة إلى أنهم رأوا في هذه الحركة التبشيرية نفسها مقاومة لمايؤمنون به من «حرية الرأي» فإغراء السذج والأطفال من المسلمين بهذه الوسا ئل المادية لحملهم على تغيير دينهم أو حتى حملهم على تغيير رأيهم في الحياة هو محاربة دنيئة لهذه الحرية، وهو من ناحية أخرى إستغلال للضعف الإنساني فضلا عن كل ذلك مناف لقواعد الأخلاق مادام يتم في الظلام ولا يصارح القائم به الناس ليناقشوه فيما يقول ويدعو، وليبينوا مافيه من زيف وفساد.

وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية، وموقف هؤلاء الأربعة ومن يشايعهم أن أندفعوا في مقاومتها بالطريقة العلمية المثلى، وفكروا وتدبروا فلم يجدوا من إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بطريقة يقتنع بها المسلم وغير المسلم.

ولا شك أن الأربعة فكروا في مقاومة هذه الحركة بطريقة علمية واضحة فحكموا العقل قبل العاطفة ولا أدل على ذلك مما نقرأه في كتاب أحدهم «الأستاذ عباس محمود العقاد» الذي ننقل منه هذه العبارة للتدليل على هذا التفكير. يقول العقاد في كتابه «ما يقال عن الإسلام» في صدر الحديث عن المبشرين مايلي:

«ولا يقل عن هؤلاء الكفرة في عداوتهم للإسلام -يقصد الماديين- جماعة المؤمنين المحترفين سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدون بها الرزق ويترسلون بها جاه الرئاسة وصفة الإصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الأوربية والأمريكية. فهؤلاء أصحاب مصلحة في تشويه الدين الإسلامي وتمثيل المسلمين على الصورة التي تذكى عند القوة جدوة التعصب وتملي لهم في الجهالة والغفلة، فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لهم لمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير ولا يندر أن يكون المبشر كافرا بالدين كله. ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه اذا كشف عن الحاده، أو قال عن الإسلام قولة حق وإنصاف تمحو عداوة الاعداء وتضعف غيرتهم وحمايتهم للحملات التبشيرية في بلاد المسلمين فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى الى علمها برضاه».

ويفرق الأستاذ العقاد بين هؤلاء المؤمنين المحترفين وبين المصدقين برسالتهم عند النظر الى أقوال المبشرين فيقول في نفس المصدر.

«فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية لعاطفته فنظر الى الأشياء على غير وجهتها وأخطأ الحكم عليها، غير متعمد أن يخطئ أو يصر على خطئه. وربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين الذي ينكره أو من فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ولكنه يفسرها على سنة الأقدمين من المبشرين تفسيرا يوافق رأيه في عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين لغضب الله في زعمه».

بهذا النمط من التفكير سلك الأربعة الكبار في مقاومتهم للتبشير ورجاله.

<u>ثانيا</u> - دخول بعض الكتابات الأجنبية عن الإسلام الى البلاد، ونعني بهذه الكتابات تلك التي صاحبت حركة الإستشراق العالمية، والتي بدأت في أوربا

في أوائل القرن الثامن عشر أو قبل ذلك، يوم بدأت أوربا تراجع معتقداتها وتتصل بالعالم الخارجي.. اتصال كشف وتقيس كل ماكانت تعرفه على الواقع والحقيقة.. وكان التراث الإسلامي هدفا من أهداف بحث المستشرقين وهنا ظهرت بعض الكتابات التي تسيء الى الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم. وهذه الكتابات إن سلمت من غرض تشويه الإسلام كهدف فلابد أن تقع فريسة أخطاء أخرى ليكون من نتيجتها تشويه الإسلام أيضا مثل عدم توافر الأمانة العلمية الواجبة، أو عدم الإحاطة بالإسلام دينا ونظاما وعقيدة، أو عدم التمكن من اللغة العربية فضلا عن بعض التعصب الديني وكثير من التعصب القومي.

وعلى الرغم من أن هذه الكتابات مضى عليها زمن طويل إلاّ أنها وقعت في أيدي جيل الثلاثينات، ذلك الذي أصبح يقرأ باللغات الأجنبية ولا يجد في نفس الوقت من المؤلفات العربية ما يستطيع الوقوف به أمام هذه الكتابات المبنية في كثير من جوانبها على الحجة والمنطق. حقيقة كان هناك من الكتابات العربية ما يقدم نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم «ولكن بصورة تسئ الى الحقيقة، بما تنسبه إليه من معجزات وخوارق لا يصدقها عقل ولا هي تفيد في تأكيد رسالته النبوية. فكان هذا الجيل من المثقفين أميل الى تصديق كتب المستشرقين الذين يخاطبونهم لما يتفق مع عقليته الجديدة واختلاف النتائج التي كان يصل إليها هؤلاء المستشرقون ما بين مقر بعظمة الإسلام ونبي الإسلام، ومنكر لها.. مع زعم الفريقين بأن ما انتهى إليه بحثهما هو نتيجة للنظر العلمي المجرد.. هذا الإختلاف جعل الشك يتسرب في صحة هذه النتائج من ناحية، ومن ناحية أخر يبدأ كتاب وأدباء هذا الجيل يتعلمون منهجهم في الكتابة وفي نفس الوقت يتصدون للكتابة في الإسلام بهذا المنهج. وبذلك قضوا على زعم هؤلاء المستشرقين بأنهم هم وحدهم الذين يستخدمون المنهج العلمي في كتابة التاريخ الإسلامي.

ثالثا ــ كتابات المتعصبين للغرب وطنيا وجنسياً التي يظهر التعصب فيها حين يكتبون عن المسلمين العرب لأنهم إذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس

استطاعوا أن يقولوا أنهم من السلالة الآرية التي ينتمي إليها الأوربيون، واستطاعوا أن يزعموا -مثلا- أن الإسلام قد أخذ التصوف عن الفرس، وأخذ الحكمة عن الهند، والفلسفة عن اليونان، وأن المسلمين العرب كانوا يعولون في خدمة دينهم -بل في خدمة لغتهم- على المجتهدين من سلالة الآريين، وقد يزيد الغلو بهذه الفئة حتى تنكر دينها لأنه تبشير رسول «يهودي سامي» كما يقولون عن السيد المسيح عليه السلام، وبعضهم ينشئ لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر التي يتبعها أصحاب العبادات ويتذرعون بما يدعونه من المزايا الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين أنفسهم، لأنهم لم يحرروا عقولهم عن العبادات الشرقية أو لأنهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة فلحقت بهم الهجنة في الأنساب وفي الأخلاق.

هذه طائفة من ذوي النيات السيئة بين كتاب الغرب، يؤلفون عن المسلمين العرب على التخصيص ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية في السياسة والاجتماع.

رابعا ــ كتابات طائفة يشوب كتابتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الإسلامية بالضبط كما يشوبها نفس الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون الى سماع أخباره، ويحبون أن توافق هذه الأخبار والأحاديث ما تخيلوه من أطواره وأعاجيبه، وهؤلاء الكتاب يسوقون كتاباتهم الي قراء ألف ليلة وليلة ورباعيات عمر الخيام، ورحلات الرواد عبر القرون الوسطى وهؤلاء يحبون أن يسمعوا خبراً غير الذي يألفونه ويشبه ما تعودوه، وهواهم كله إلى الأحاديث الشرقية التي تعرض لهم شرقا في الواقع كالشرق الذي سبق أن قرأوا عنه في أساطير الخيال. وقد رأينا بعض كتاب الغرائب في القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم أنه نزل بضيافة شيخ في الستين له في مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة، وله من الأبناء والبنات ما ليس يحصيه، ورأينا غيره يزعم أنه زار في العواصم الإسلامية بيوتا لا تفتح نوافذها وأبوابها بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات والسراري لا يهتدين في الطريق بغير دليل من الخصيان. ولكن هؤلاء المغربين المتخيلين بدأوا يشوبون شيئا فشيئا إلى

الإعتدال في رواية أخبارهم وأعاجيبهم هذه عن الإسلام ورجاله بعد شيوع الصور المتحركة وإنتشار المناظر الشرقية على حقيقتها فيما تعرضه الشاشة البيضاء أو تعرضه الصحف السيارة. ولم تبق للمعربين المتخيلين غير زاوية واحدة يملأونها بالأعاجيب والمدهشات عن المسلمين الشرقيين وهي زاوية التاريخ والعصور التاريخية التي يعمرونها بأبطال العصور الغابرة فيما يؤلفونه عن المسلمين، من قصص البيوت والخدور.

خامسا ـ خلو الميدان من الكتابات الإسلامية المقنعة لسببين:

السبب الأول: عدم وجود مفكرين أفذاذ مثل جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق أو محمد عبده المجدد الإسلامي أو غيرهما ممن يستطيعون الصمود أمام هذه الهجمة الضارية والدفاع عن الإسلام بالحجة والمنطق خاصة وأن القائمين على أمر الكتابات المغرضة كانوا في الأصل مفكرين يخدمون السياسة الغالبة على دولهم فيصطفون لغة الدعاية تارة، ولغة الدبلوماسية تارة أخرى.

والسبب الثاني: هو في انصراف الأدباء والمفكرين في ذلك الوقت الى الكتابات السياسية والأدبية. فمن الناحية السياسية نجد أن هذه الفترة -عشرينات وثلاثينات هذا القرن- إجتاحتها أزمة سياسية شاملة أطاحت بالدستور وفرضت على الناس دكتاتورية الأقليات السياسية، وعطلت الصحف، وضيقت على الحريات. فضلا عما كانت تعانيه البلاد آنئذ من أزمة إقتصادية. فانصرف كتاب هذه الفترة إلى السياسة وهاهو الأستاذ العقاد يصل به الأمر الى أن يقف في مجلس النواب عام 1928 ليهدد رأس الملك بالسحق فيسجن تسعة أشهر، مما يؤكد أن كتاب هذ الفترة وأدباءها شغلتهم السياسة وأحداثها. أما من الناحية الأدبية فقد انصرف اغلب المفكرين و الأدباء إلى النقد و الأدب وما يدور حولهما من معارك كثيرة.. فقد كانت هذه الفترة إحياء للآداب العربية أسوة بما حدث للآداب الأوربية وهو ماعبر عنه الدكتور طه حسين في تقديمه لكتاب فجر الإسلام وهو يبرز انصراف أغلب الأدباء والكتاب والمفكرين عن الكتابة في الإسلام.

سادسًا ـ اللياذ بالعقيدة الدينية خوفا من المذاهب التي تعتبر في ذلك الوقت خطرة. وهاهو الأستاذ العقاد يعبر عن ذلك في مقالة له في روز اليوسف عام 1935 يقول فيها:

(إن السبب العالمي الأكبر لهذه الظاهرة -اللياذ بالعقيدة الدينية- هو فشل الفلسفة المادية في اقناع العقول وإرضاء النفوس وطمأنة الضمائر بعد إحتياجها العالم زهاء قرن كامل، واعتزاز الناس بها في غير طائل وانتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التي تعبرا في البحث عنها والرجوع بها إلى الجامدين المتقنين وهو لا يفقهون بم يجيبون ولا يبيحون للناس أن يفقهوا ما يجهلون).

«وأما السبب الشرقي فهو اليقظة العربية واللياذ بالعقيدة التى تعيد ذكرى المجد القديم، وتحمي أصحابها من غارات أعدائها في العصر الحديث، ففى الحجاز وفي اليمن والعراق وسوريا وغيرها من البلدان الإسلامية كالهند والجزائر الأسيوية حديث عن الإسلام والعرب، ورغبة دائمة في القراءة عن تاريخ المسلمين وزعماء الإسلام ومن كان قد اطلع على طرف من العلوم العصرية من أبناء هذه الأقطار المترامية فهو يشتاق أن يرى الإسلام على هدى هذه العلوم، وان يحكم الصلة بين زمانه وبين ما سلف من الأزمنة».

ويستمر الأستاذ العقاد في مقاله هذا إلى أن يصل إلى قوله: «يحيط بهذه الأسباب جميعا سبب شامل هو الفزع من الشيوعية والإعتصام منها بالعقائد الروحية التي لا تسيغ المذاهب المادية».

سابعا- اجتذاب فريق من المسلمين المتعلمين إلى قراءة الكتب العربية بعد انصرافهم إلى الكتب الأوربية حيث يلتمسون فيها حقيقة الإسلام إقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين بالعربية، بعد أن تبينوا أن الزندقة -في نظر جماعة من العلماء المسلمين- تقابل حكم العقل ونظام المنطق وأ ن الإلحاد عندهم قرين الإجتهاد، كما أن الإيمان قرين الجمود. فأتجهوا إلى الفلسفة وأهملوا التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها حرصا منهم على ألا تثور بينهم وبين دعاة الجمود حرب لا ثقة لهم بالإنتصار فيها. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم يدرك بعض المتعلمين من المسلمين في ذلك الوقت ضرورة الإتصال الروحي بين الإنسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع بالإنسان الى أرقى مراتب الكمال، وتتضاعف به قوته المعنوية. فأقتحم ميدان الكتابة في الإسلام

هؤلاء الأربعة مدركين أن عملهم هذا يفسد ما يبغيه الإستعمار من تأييد المطاعنين في الإسلام تحت إسم حرية الرأي، وقصده في ذلك القضاء على الروح المعنوية بإضعاف الثقة في دين الأمة مما يضر بها.. وأي ضرر يصيب الأمة بعد انصراف متعليها الى كتابات عن الإسلام بأقلام غير المسلمين؟

ثامناً ـ تحدي الحركة المحافظة. تلك التي عادت كل ماهو جديد في الفكر في النصف الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين.. حين كانت مصر تجتاز مرحلة المخاض العسير لولادة فكر مصري متميز.. وهنا تمثلت قلة من أبناء مصر الموجة الغربية وبدأت تعمل على تطوير الحياة المصرية يدفعها الى ذلك.. التحدي لملاقاة هذه الحركة المحافظة التي أسفرت عن وجهها وهي تجتاز صحوة الموت عن جمود اتسم بالعنف في مواجهة كتابات وافكار الشيخ محمد عبده في دفاعه عن الإسلام، ودعوة قاسم أمين لتحرير المرأة، وفي موقفها المتعصب في كتابي «الشعر الجاهل» للدكتور طه حسين و«الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرزاق.

تاسعاً ـ الإستقلال عن تركيا وبريطانيا كان تدعيما لأصحاب الأراء المتحررة المعتدلة، مثل طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين وغيرهم ممن بدأوا يعملون على إيجاد فكر يحافظ على الأصيل من القديم الموروث؛ ويصل في نفس الوقت إلى الجديد الأجنبي. وبمعنى آخر تناول تراثنا بأسلوب عصري جديد ولم يكن هناك أفضل من الإسلام من ناحية الأصالة لتناوله بأسلوب عصري جديد خاصة وأن الدين أول ما يقصد بالحمابة حين يخشى الناس عاقبة هذه الأفكار الأوربية الوافدة التي ترى أن كل ما سبق من مسلمات وعقائد وأفكار يجب أن يعاد بحثه وتمحيصه على الطريقة العلمية. وتطبيق الطريقة العلمية على الدين -وهو أمر له جلاله وقداسته- كان بعد مغامرة خطرة؛ إلاّ أنها مغامرة كانت ضرورية وحتمية برغم خصورتها.. ومادامت هي ضرورية فالأفضل أن يقوم بهذه المغامرة من يعنيهم أمر هذا الدين وهم مفكرونا وكتابنا من المسلمين قبل يقوم بها غيرهم ممن لا يمثل الدين عندهم أهمية في قليل أو كثير.

عاشراً ـ رغبة الكتاب والأدباء في ايجاد وسيلة لربط حاضرِ الأمة بماضيها.. وفكروا في ذلك كثيراً.. فاتجهوا الى الفرعونية يلتمسون فيها الإمتداد الى الحاضر.. فلما لم يجدوا ذلك ممكنا.. اقتنعوا بأن الإسلام هو

الأفضل من ناحية الإمتداد الى الحاضر ومما يؤكد هذا الرأي قول الدكتور هيكل في مقدمة كتاب «حياة محمد»: «خيل إلي كما خيل الى أصحابي أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا الى هذا النهوض، ولكن ما في الغرب غير صالح لأن تنقله فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب».

ويمضي الدكتور هيكل في سرد ما بين الحياتين المصرية والأوربية من فروق ثم يقول: «وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلا لوحي هذا العصر. ينشئ فيه نشأة جديدة فإذا الزمن، وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد لا يصلح بذرا لنهضة جديدة فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو..».

ولهذا كانت محاولات هيكل وأصحابه في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي حتى يتم ربط حاضر الأمة بماضيها.

حادي عشر ـــ يحيط بهذه الأسباب والعوامل.. عامل شخصي يتصل بالوراثة وظروف النشأة في أوساط إجتماعية تحترم الدين.. فالأربعة يهتمون عند كتابة مذكراتهم الخاصة بأن يشيروا في شيء من الإعتزاز بأنهم حفظوا القرآن في طفولتهم .. كما حدثنا الدكتور طه في «الأيام» والدكتور هيكل في كتابه «مذكرات في السياسة» والدكتور أحمد أمين في «حياتي» والأستاذ العقاد في كتابه «أنا».

وهذا يعني أن للوراثة وظروف النشأة دخلا كبيرا في هذ الإهتمامات بعد ذلك. وهذا ما يجلوه ويعبر عنه صراحة الأستاذ العقاد في مقدمته لكتاب «فاطمة الزهراء» حيث يقول:

«ترد الإشارة الى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية، ونعول عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض لأطوار ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية.

وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسي وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الإسلامية..»

ويمضي الأستاذ العقاد في مقدمته هذه موضحا ومؤكدا في نفس الوقت أن للوراثة وظروف النشأة أثرا فيما قدم بعد ذلك من الكتابة في الإسلام.

ثاني عشر ــ تصادف وجود هذا الجيل.. الذي يمثل بعض أفراد معالم فكرنا العربي.. فقد وجد في وقت واحد للدكتور طه حسين والأستاذ عباس محمود العقاد والكدتور محمد حسين هيكل والدكتور أحمد أمين وغيرهم ممن تشبعوا بالحضارة الغربية سواء في مهدها كما حدث للدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل حين سافرا الى باريس الأول لدراسة الفلسفة والثاني لدراسة الحقوق، أو بالإطلاع على هذه الحضارة من خلال الكتب الوافدة كالأستاذ العقاد والدكتور أحمد أمين.

ووجود الأربعة جنبا الى جنب في عصر واحد ضمن التجربة أكبر قدر من النجاح.. تعني بالتجربة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي وفقا للمناهج العلمية الحديثة. فالأربعة كان يجمعهم -على الرغم من الخصومات التي كانت بينهم- أسلوب عمل واحدهو التجديد المبني على الأسلوب العلمي. وهذا في حد ذاته كان يعصمهم من هجمات دعاة الجمود وأنصاره.

* * *

لهذه الأسباب وغيرها فكر الأربعة تفكيرا جديا في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي مستخدمين الأدوات الغربية في البحث.

وكانت الخطوة الأولى تقريبا في هذا المشروع عندما اتفق الدكتور طه حسين مع الدكتور أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادي على كتابة التاريخ الإسلامي من فجر الإسلام حتى آخر عصر الدولة الأموية. بحيث يختص كل منهم بجانب من هذا البحث فاختص الدكتور طه حسين بالحياة الأدبية في الإسلام والدكتور أحمد أمين بالحياة العقلية والأستاذ عبد الحميد العبادي بالحياة السياسية.

وفي نفس الفترة تقريبًا بدأ تفكير الدكتور محمد حسين هيكل يتجه للكتابة في الإسلام وها هو يشير الى ذلك في كتابه «حياة محمد»فيقول: «كان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفي منها أن دفعني للتفكير في مقاومتها بالطريقة

المثلى التي توجب على أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثا علميا، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك في تقديره الجميع..».

ثم يقول أنه سأل عن كتب أروبية كتبت عن حياة صاحب الرسالة فذكر أحدهم كتاب المفكر الفرنسي «أميل درمنجم »عن ««حياة محمد» ولم ألبث أن اقتنيته وعكفت على مطالعته حتى فرغت منه ثم بدأت أنشر عنه بحثا في السياسة الأسبوعية. فلما ظهر العدد الأول عام 1932 تخاطفه الناس تخاطفا حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذي طبعناه فشجعني ذلك على المضي في بحثي وعلى الإستزادة منها..

ويظل الدكتور هيكل في متابعته للبحث عن صاحب الرسالة ثلاث سنوات بعدها يصدر كتابه «حياة محمد» وتتوالى مؤلفاته الإسلامية.

وهاهو عملاق الفكر العربي، وصاحب العدد الأكبر من الكتب الإسلامية الأستاذ عباس محمود العقاد يحدثنا عن اللحظة التي بدأ فيها في التفكير للإسلام.. فيذكر أنه بعد وقعة حدثت أثناء مناقشة قامت بينه وبين عدد من أصدقائه لما كتب «توماس كارليل» عن النبي في كتابه «الأبطال» وكيف أن أحدهم تطاول بالحديث على شخص النبي الكريم فاساء الى مشاعر الحاضرين الأمر الذي جعلهم يجبرونه على الخروج من مجلسهم. أعقب ذلك حديث بين الأصدقاء ننقله من كتاب «عبقرية محمد» والحديث هو:

«ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبي وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه. ثم سألني -الحديث للعقاد- بعض الأخوان: مابالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتاب عن محمد على النمط الحديث؟» قلت افعل وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب».

وبالفعل وفّى الأستاذ العقاد بوعده... فكانت بداية الأربعينات بداية لهذا السيل -الذي لم ينقطع حتى وفاته- من الكتابات الإسلامية الجادة.

* * *

وهكذا نرى أنه كانت هناك دوافع وأسباب لاتجاه كتابنا الأربعة «طه حسين، وحمد حسين هيكل ، وأحمد أمين، االأستاذ العقاد» الى الكتابة عن الإسلام.

موهبة سيد قطب التصورية

التصوير في أسلوبه:

حبا الله سيد قطب ميزات عظيمة أدت به الى اكتشاف نظرية التصوير الفني في القرآن، كما أهلته الى ادراك الكثير من معاني القرآن وبخاصة الحركية منها.

وقد كان لقريته -بما فيها من مناظر ومشاهد ساحرة- أثر عظيم في تفتح ملكاته الفنية ومواهبه الجمالية.[1]

وفي القاهرة أتيحت له فرصة الدراسة بدار العلوم، والإطلاع على الصحف والمجلات الصادرة فيها، واتصل بالعقاد وأقبل على مكتبته التي ضمت مختلف نواحي المعرفة والثقافة، وراح ينهل من معانيها، ويطلع على الآراء والنظريات الفنية والنقدية الغربية المترجمة، وقد كان لذلك كله أثر واضح في نمو مواهبه الفنية، وامدادها بزاد فني جديد وتكوين ذوق نقدي أصيل. أهله فيما بعد للقيام بعمله النقدي على أحسن وجه ولدخول عالم القرآن بخطى قوية ثابتة.[2]

لقد مارس سيد قطب نظم الشعر في فترة مبكرة من حياته، كما زاول فن الكتابة في مقتبل العمر وكان في شعره وكتابته، يميل إلى استخدام الصور والظلال، ويسلك طريق أرباب الفن.

لقد كان شاعرا مصورا وكاتبا مصورا، اعتمد على الألفاظ في تصوير خواطره وأفكاره، فهو يرى أن اللفظ لم ينبعث من فم القائل الا بعد وجود صورة معينة

1- انظر كتابنا (سيد قطب الشهيد الحي) مبحث «حياته في القرية».

2- انظر كتابنا (سيد قطب الشهيد الحي) مبحث: «سيد قطب مع العقاد».

يرمز اليها في ذهنه، وهو كذلك لا ينشىء في ذهن السامع صورة لا عهد له بها من قبل، ولكنه يقتصر على استدعاء الصورة الكامنة في نفسه [1] ويرى أن غاية العمل الفني الأدبي هي التصوير والتأثير: التصوير للتجربة الشعورية التي مرت بالفنان، والتأثير في نفوس الأخرين بنقل هذه التجربة اليهم في صورة موحية.[2]

ومن رأيه أن الصور الفنية الشاخصة التي يرسمها الشاعر الفنان بالألفاظ أجمل من الصور التي يرسمها الرسام بريشته وألوانه! لأن صور الشاعر التي مادتها الألفاظ تدع متعة للخيال وهو يخلق الصور ويمحوها، ويكمل الحركات ويتبعها، بينما صور الرسام تحرم الخيال نشاطه، لأنها تبرز المناظر كاملة للعين. فلا يكون فيها من الجمال الا جمالها الذاتي،.

ان صور الشاعر المرسومة بالالفاظ أكثر بلاغة وأشد جاذبية من نور الرسام المرسومة بالريشة و اللون.[3].

التصوير في نثره:

تميزت كتابات سيد قطب النثرية -مقالة أو بحثا أو قصة- بقوة العاطفة وشدة الجاذبية، وعظم التأثير، وعمق الخيال، بالإضافة الى سلاسة أسلوبه، وتمكنه من البلاغة، ومطاوعة أفكاره له، واستقامة بيانه، وقد أدى إجتماع هذه الميزات في كتاباته الى اجتذاب جمهور القراء، وإقبالهم على كتبه، حتى أصبح سيد قطب هو الكاتب المفضل في أوساط الشباب، ولدى الطبقة المثقفة.

وقد إعتمد في كثير من هذه الكتابات الأسلوب التصويري، حيث لم يخاطب الذهن وحده، خطابا تجريديا، يلقي إليه المعاني مجردة، وإنما خاطب الذهن والعاطفة والوجدان والشعور، خطابا تصويريا، حمل ألفاظه وتراكيبه، كل ما تحتمله من الصور والظلال بطريقة التصوير والتخييل والتظليل.

1- كتب وشخصيات: 12

2- الرسالة -السنة الرابعة عشرة- م2 عدد 696 تاريخ 4 نوفمبر 1946، 216 صفحة.

3- المقتطف - م 94 جـ 2 فبراير 1939 صفحة: 208.

والقصص التي نشرها قصص مصورة، وهي (طفل من القرية) و(أشواك) و(المدينة المسحورة). كما نشر عددا من القصص القصيرة المصورة في الصحف والمجلات.

من هذه القصص قصة (من صور الحياة: الصداقة) صور فيها العلاقة الحميمة بين صديقين حبيبين ورسم خطوات الشياطين لإفساد هذه العلاقة بينهما. رسم لهذه العلاقة صورة بستان ظليل، ورسم للوساوس والظنون صورة شياطين ماكرة، رسم للضمير الذي يحرس هذه العلاقة صورة حارس البستان. وبعد أن رسم هذه الصور رأيناها شاخصة أمامنا بعد أن خلع عليها صفات الأحياء. فهاهو الضمير حارسا (واقفا أمام هذا الحمى، يشير بالصمت لمن يهم بالضوضاء، ويهمس بالإنصات لمن يرفع صوته بحديث ويوحي بالهدوء لمن يدب في جلبة، حتى يحفظ لذلك الوادي الظليل أمنه، وهدوءه وروعته) ولكن الحارس لم يكمل مهمته بيقظة! وفي اغفاءة من إغفاءاته جاءت الوساوس في صورة شياطين ماكرة (وأطلت الشياطين برؤوسها تتجسس. فإذا الحارس في إغفاء.. قالت تتهامس (وما بالنا لا ننتهز هذه الفرصة التي لا تتاح؟ ثم تقدمت في خطوات هامسة، فاجتازت الوصيد، وراحت تنفث في ذلك الهدوء الشامل نفثاتها، وهي حذرة وجلة.. فاستيقظ ذلك السبات المهموم الوديع، وصحت الأمال من سكرتها الحالمة مذعورة. ورأت الشياطين ما ألمّ بذلك الخلد النائم، فتغامزت جذلة، وتراقصت في حبور، ثم تسارعت بالخروج قبل أن يستيقظ الحارس وتظهر الجريمة).

وعاود الحارس اغفاءاته، وعادت الشياطين تتجسس خلسة.. وفي ساعة الصفر وبعد أن احكمت خطتها، هجمت على البستان، وطعنت الحارس عدة طعنات مميتة وتراكضت متزاحمة الى داخل الروض (فلم يبق منهم من نائم في الروض حتى صحا ولا آمن حتى اضطرب، ولا وداع الاثار، وسار الجميع زرافات ووحدانا، يعيثون ويخطبون ويحطمون ويدوسون، وهم في سكرة ونشوة كالوحوش الجائعة تلتقف الفرائس، فاذا الروض بعد حين هشيم. واذا هم يشعلون النار في ذلك الهشيم فلا تبقي ولاتذر.. وإذا الروض بعد ذلك رماد تذروه الرياح!... ابحث عن الصديقين الوفيين عبثا في طيات ذلك الهشيم) [1]

1- البلاغ الأسبوعي - السنة الرابعة - عدد: 174 تاريخ 16 يوليو 1930 صفحة: 23.

وصور لنا في (المدينة المسحورة) النوم وقد تسلل الي عيون الراعية (ساسو).. (ولم تدر كيف تسلل النعاس الى مخدعها برفق. فأغمض بأنامله الرقيقة جفونها الساهرة. ثم تسلل مرة أخرى، وتركها للأحلام اللذيذة وعلى شفتيها ابتسامة وضيئة تشيع في محياها الجميل) [1]

كما صور لنا حالة الاميرة (تيتي) خطيبة الامير السابقة، بعدما اعلن خطبته من فتاة الغابة (ساسو) قال... (وبدا لنا أن الفلك قد كف عن الدوران، وان الليل قد جثم في مربضه، يتطلع إليها بألف عين وعين، ويغمز لها غمزات السخرية والنكاية والاذلال) [2].

وبعد أن فقدت الأميرة (تيتي) خطيبها، ذهبت الى كهف الساحرة الشريرة التي تسكن وادي الغيلان، لتعرف ما يخبئه لها القدر، وبعد أن تطلع على المخبوء تتحول هذه الأميرة الرقيقة الى ساحرة شريرة، وقد رسم لنا سيد قطب هذا المشهد بريشته المصورة، منذ أن أخبرتها الساحرة بمصيرها حتى صارت هي ساحرة. (يتزوج الملك -تاسو- من فتاة الغابة -ساسو- أما الخطيبة الاميرة فترتد ساحرة شريرة، تسكن الصخر والرمال بين السماء والجبال. فاذا آن الآوان، وتعين الزمان. جاءت إليها فتاة، في مقتبل الحياة، عاشقة مهجورة، كحالة الاميرة تطلب منها الانتقام في ساعة الخصام، فينفذ المقدور ويقع المحذور، وتسحر المدينة فتشفى الضغينة!.. شاهت الوجوه، شاهت الوجوه، شاهت الوجوه..

وبينما كانت الأميرة تستمع والساحرة تتلو، والبخور يتصاعد، كان وجه الأميرة يربد شيئا فشيئا. وسحنتها تنقلب قليلا قليلا، وجسمها ينتفض انتفاضة الغيظ وعيناها تقدحان بالحقد، فما أتمت الساحرة قولها حتى تبدلت تبدلا غريبا، فغارت عيناها، ونتأ صدغاها، وانتكش شعرها، وبدا في نظراتها الشر وتحولت من صورة الانسيات الى صورة الجنيات. راحت تردد بصوت مسموع يتزوج الملك تاسو من فتاة الغابة ساسو. أما الخطيبة الأميرة فترتد ساحرة شريرة... الخ. وهي تحثو على رأسها التراب. وترقص رقصات جنونية هستيرية، في هيئة تقشعر لها الأبدان. وماهي إلاّ لحظة حتى امتلأ المكان بأشباح لا عد لها ولا حصر، تحثو على رأسها التراب وترقص رقصاتها الهستيرية، وتردد معها الكلمات في صوت

1- المدينة المسحورة: 23

2- المدينة المسحورة: 45.

مبحوح، يثير الرعب والفزع. فما لبثت العرافة ان خرجت راكضة، وهي تتلو التعاويذ. والشعب كله يدوي بعزيف الجان) [1]

ورسم لنا في كتابه (خصائص التصور الإسلامي) صورة فنية لاذعة شاخصة للبشرية اليوم، وقد أفلت زمامها من كل ما يشهدها الى محور ثابت، وهو الإيمان. فصارت أشبه بجرم فلكي خرج من مداره وفارق محوره، ويوشك أن يصطدم فيدمر نفسه، ويوقع المدار بالكون من حوله (والعاقل الواعي الذي لم يأخذه الدوار الذي يأخذ البشرية اليوم، حين ينظر الى هذه البشرية المنكودة، يراها تتخبط في تصوراتها، وانظمتها وأوضاعها، وتقاليدها، وعادتها، وحركاتها كلها، تخبطا شنيعا... يراها تخلع ثيابها وتمزقها كالمهووس! وتتشنج في حركاتها وتتخبط وتتلبط كالمسوس... يراها تغير ازياءها في الفكر والإعتقاد كما تغير أزياءها في الملابس، وفق أهواء بيوت الأزياء!.. يراها تصرخ من الألم، وتجري كالمطارد. وتضحك كالمجنون وتعربد كالسكير، وتبحث عن لا شيء!.. وتجري وراء أخيلة.. وتقذف بأثمن ما تملك، وتحتضن أقذر ما تمسك يداها من أحجار وأوضار.. لعنة! .. لعنة! لعنة كالتي تتحدث عنها الأساطير..إنها تقتل الإنسان وتحوله الى آلة... لتضاعف الإنتاج) [2]

التصوير في شعره

يغلب على قصائد سيد قطب المختلفة الموضوعات، طابع التصوير، وعدّ بذلك من الشعراء المصورين، وكان أكثر من غيره من الشعراء المعاصرين استخداما للصور والظلال في شعره، وعني بهذا اللون عناية خاصة. ولا غرابة في ذلك فان التصوير والتخييل هي الصفة الغالبة على أسلوبه، وان لهذه الصفة جذورا عميقة راسخة في نفسه وشعوره وخيالته وأحساسيه ورؤاه!

لقد أكثر سيد قطب من الصور والظلال في قصائده، بل ان بعض هذه القصائد تعتبر مشاهد تصويرية رائعة، محفوفة بالصور الفنية، والظلال المصاحبة لها، والتي تلقيها الالفاظ بجرسها أو إيقاعها أو معانيها، وتلقيها العبارات بما حوته من هذه الإيقاعات المختلفة!

1- المدينة المسحورة: 51

2- خصائص التصور الإسلامي: 92.

في قصيدته (الخطيئة) شخص لنا الخطيئة، بحيث احسسنا مشيتها كالحية، وسمعنا صوتها الهامس يدعو الى الرذيلة:

من خلال الظلماء في بهمة الليـ ـيل تمشت كالحية الرقطاء
توقظ الجسم والغريزة بالهمـ ـس وتطغى على الحجا والذكاء

وقد رسم لنا حركة هذه الخطيئة في مشهد حي، فهي تخشى الضمير اليقظ وتتوارى من خشية في الميول والاهواء، فاذا شع شعاع منه التوت كالحية وانزوت، وإذا خيم الظلام أطلت تنظر في احتراس حتى لا يراها الرقباء:

وهي من خشية الضمير توارى في زوايا الميـ ـول والاهواء
فاذا شع من سناه شعاع ارجفت منه وانزوت في التواء
وإذا خيم الظلام تراءت في احتراس عن أعين الرقباء [1]

والجمال الفني في هذا المشهد هو في تلك الحياة التي خلعها على الخطيئة وفي تلك الحركة الحية الحسية التي قامت بها!

وفي قصيدته (القطيع) صور لنا حرارة القيظ بأنها فوارة من جهنم تسيل شظاياها، وتطرد الظل، وتسيطر على كل مكان.

لظى الشمس؟ أم فوارة من جهنم تسيل شظاياها وتنضـ ـح بالدم
هو القيظ قد فارت ينابيع وقده وفاضت على الارضين في كل مجثم
وضاق رواق الظل عنها وأرسلت من الشمس ارسال الى كل مبهـ ـم [2]

وفي تجسيم القيظ حيث جعل لناره ينابيع تفيض على الارض، كما في رسم حركة الينابيع تفيض أمامنا، وارسال الشمس الى كل مكان لتسيطر على أراضي الظلال وتضطرها الي الانحسار في بقعة صغيرة. في هذا كله جمال فني رائع.

وفي نفس القصيدة رسم لنا صورة لقطيع الغنم وقد نامت:

1- دار العلوم - السنة الأولى - العدد الرابع ابريل 1935 صفحة: 75.
2- دار العلوم - السنة الثانية- الجزء الأول- يونيو 1935 صفحة: 119.

فنام على الاعشاب ما ان ترى له ... رؤوس فقد دست بأحناء مفصل
توحد جسم الشاء كالزرد التقت ... مداخلة وانساب جم التسلسل
كأن شاء ذياك القطيع توحدا ... فأغفل ذلك الرأس رمز التعقل
ويا طالما قد فرق الناس رأسهم ... وما يقتضيه من طماح ومأمل [1]

وأضفى جمالا على المشهد في تشبيهه الغنم عند نومها بالزرد لأنها أخفت رؤوسها بين أجسامها، وتفسيره الفلسفي لدور الرأس في الفرقة.

في قصيدته (على القمة) صور لنا حركته عندما صعد الى القمة، وسجل خواطره وانفعالاته، كل هذا في مشهد تصويري رائع فيه من التمثيل والتشخيص ما فيه:

دلفت إليها، والخطا تسبق الخطا ... وفي النفس شوق يستحث ويلهب
هو الشوق للمجهول يهمس طيفه ... وتهفو رؤاه مغريات وتغرب
هو الشوق للرقيا، وفي الحي حافز ... إليها فيرقى في الحياة ويغلب

بقلم: صلاح عبد الفتاح الخالدي

1- دار العلوم - المرجع السابق- صفحة: 120.

رحلة العلماء الى البادية
ورحلة الأعراب الى الحضر

أحمد أمين

كان كثير من الأعراب يفدون على مدن العراق، فيأخذ العلماء عنهم اللغة، وقد عدّ ابن النديم في الفهرست عدداً، منهم أبو زياد الكلابي، أبو سَوّار الغنوي ــ وقد أخذ عنه أبو عُبيدة ــ ونور بن يزيد - وقد أخذ عنه إبن المقفع - وأبو خيرة العدوي، وأبو مهدية، وأبو مسْحل، وأبو ضَمْضَم الكلابي [1] وقد إتصل بهم علماء اللغة يأخذون عنهم ومن هؤلاء الأعراب من كان يكتب ويؤلف كتبًا. كأبي زياد الكلابي ألّف كتاب النوادر، وكتاب الفرق، وكتاب الإبل، وكتاب خلْق الإنسان. ومنهم من كان يعلّم اللغة ويتعلم النحو على علمائه، كأبي مسْحَل فقد أخذ النحو عن الكسائي. ومنهم من كان يميل الي الغريب النادر، ويتقعر في كلامه، ويغلّظ طبعه ليبرهن علي إمعانه في البداوة، كأبي مُحَلّم الشّيباني. وكانوا يتكسبون بذلك فمنهم من كان يعلم الصبيان بأجرة كأبي البيْداء الرّباحي، ومنهم من كان يفد على الأمراء كأبي ضمضم وفد على الحسن بن سهل، وكثير من الأعراب كانوا يفدون على إسحاق الموْصلي [2].

وكما كانت الأعراب ترحل الى الحضر للكسب أو طلب العلم، كان العلماء والأدباء يرحلون الى البادية في طلب اللغة والأدب، فيحدثنا الأغاني أن بشاراً «قيل له ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلاّ وقد قال فيه شيئًا استنكرته العرب من ألفاظهم، وشكّ فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه. قال: ومن

1- الفهرست: 43 وما بعدها. 2- أغاني: 77، 81، 90، 120.
2- أغاني 3: 26، وأبدى أقام بالبادية.

أين يأتيني الخطأ؛ وولدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين شيخًا من فصحاء بني عقيل، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت الى نسائهم، فنساؤهم أفصح منهم، وأيْفَعْتُ فأبديتُ الى أن أدركت، فمن أين يأتيني الخطأ!». ويقول نزل ظاهر البصرة قوم من أعراب قيْس عيْلان وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتيهم (وكان يأتيهم أبان اللاحقي) [1]

وكان علماء اللغة من بصريين وكوفيين يتسابقون في الرّحلة الى البادية، والأخذ عن العرب. وقد اشتُهر في عصرنا بهذه الرحلة أبو زيد الأنصاري، وأبو عمرو ابن العلاء، والأصمعي والكسائي. فأبو زيد يقول في أول كتابه النوادر «ما كان فيه من شعر القصيد؛ فهو سماعي من المفضل بن محمد الضّبي، وما كان من اللغات، وأبواب الرّجز؛ فذلك سماعي من العرب». وسأل الكسائي الخليل بن أحمد، من أين علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز، ونجد وتهامة.

فخرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه» [2]. وأما أبو عمرو بن العلاء، فقد رووا؛ أن كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتًا له الى قريب من السقف» [3] وتاريخ الأصمعي مملوء بالقصص عن الأعراب في البادية، وما سمع منهم من لغة وشعر وقصص.

ولم يكن عمل علماء اللغة في ذلك العصر، إلاّ نقل ما يسمعون من العرب مشافهة إلى التقييد بالكتابة، فأكثر اللغة كتبت في العصر العباسي الأول لا قبله، وكانت أهم وسائل النقل هي ماذكرنا من رحلة العرب الى العراق، ورحلة علماء العراق الى البادية، وتحرير اللغويين بما سمعوا من العرب مباشرة أو بواسطة.

وبعد، فهل كان كل الذي دوّنوه صحيحًا؟ وهل كان الآخذون وهم علماء اللغة والمأخوذ عنهم وهم العرب كلهم ثقة؟ الحق أن لا! وأن بعض العرب كانوا يخطئون

1- الأغاني 3: 52.

2- طبقات الأدباء لابن الأنباري ص 84.

3- ابن خلكان1: 550.

أحيانًا، ويكذبون أحيانًا، وأن بعض علماء اللغة كانوا يخطئون أحيانًا ويكذبون أحيانًا، كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على جديد لم يعرفوه، وكانت المنافسة بينهم شديدة، وحب الفخر والتظاهر شديداً خصوصًا في مجالس الخلفاء والأمراء. وكان يُقضَى على العالم في جهله بكلمة أو خطئه في كلمة، فدعا بعضهم لأن يتزيّدوا ويختلفوا إذا أحرجوا، وأحس بعض الأعراب بهذه النفسية فكانوا يُغربون أحيانا، ويختلفون أحيانًا. وسبب آخر وهو أن العداء بين البصريين والكوفيين بلغ مبلغًا عظيما، فكان علماء كلتا المدينتين يتشيَّعون لمذهبهم، ويبرهنون عليه بالمصنوع أحيانا، وكتب النحو واللغة مملوءة بالأدلة على ما نقول.

أما خطأ العربي فقد يكون من عدم فهمه لمعنى الكلمة، كقول عربي يصف إمرأة بالغفلة:

لمْ تَدْرِ ما نسْجُ اليَرَنْدَجِ قبْلَها ودِراسُ أعوصَ دارسٍ متخدد

ظن أن اليرندج يُنسجُ، وإنما جلد يصبغ [1]

وقال عمرو بن كلثوم:

علينا البيْضُ واليلَبُ اليماني وأسياف يقُمْنَ وينحنينا

قال إبن السّكيت. سمعه بعض الأعراب، فظن أن اليَلب أجودُ الحديد، فقال: «ومحورٍ أخلص من ماء اليلَب» وهو خطأ، وإنما هو جلود تنْسجُ [2]

وأحيانا يكون خطأ العربي ناشئًا من عدم فهم طبائع الأشياء، كقول عربي يصف درّة:

فجاء بها ما شئت من لَطَمِيَّة يَدُومُ الفُراتُ فوقها ويموج

فجعل الدر من الماء العذب، وإنما يكون في الماء الملح.

وقد يكون خطأ في الحوادث التاريخية، فقد قال الكميْت:

كأنَّ الغُطَامطَ من غليها أراجيزُ أسْلَمَ تهجو غِفارا[3]

1-المزهر1: 248.

2- لسان العرب2: 306.

3- الغطمطة: صوت القدر

فقال نُصيب: ما هجت أسلم غفاراً قط! وقد يكون من سوء تصريف العربي ، فقد قال عربي - وكانت قد ماتت زوجاته تباعًا-:

غدًا مالكٌ يرْمي نســـائي كأنما نسائي لسَهْمي مالكِ غرضانِ

فيا ربِّ فاترك لي جُهيْمة أعصُرا فمالكُ موتٍ بالقضاء دهاني!

ذلك؛ أن هذا الأعرابي لما سمعهم يقولون «ملك الموت» سبق إليه أن هذه اللفظة على زنة فَعَلَ -كفاك- فاشتق منها كلمة على وزن «فاعل» مع أن مَلَكَ على وزن مَفَلَ لأن أصله مَلأك فالإشتياق خطأ. وكهمزهم مصائب، قياسًا على صحائف، وهو غلط لأن ياء مصيبة أصلية، وياء صحيفة زائدة، الخ.

وأما أكاذيبهم، فقد عقد المبّرد بابًا في كتابه الكامل، سماه «أكاذيب العرب»- هذا شأن العرب.

وأما خطأ العلماء فتروي منه ما روى ابن الأعرابي قال لقيني أبو محلّم ومعه أعرابي، فقال جئتكم بهذا الأعرابي لتعرفوا منه كذب الأصمعي، أليس كان يقول في بيت عنترة:

شَرِبَتْ بماء الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحتْ زَوْراءَ تَنْفِرُ عنْ حِياضِ الدَّيْلَمَ

إن الديلم الأعداء بأنهم أعاجم، والعرب كانوا يعدون جميع الأعاجم أعداءهم. فسلوا هذا الأعرابي، ما معنى الديلم؟ فسألناه فقال: الديلم حياض بالغوْرأوْرَدْتُها إبلي غير مرة!

والظاهر أن معاجم اللغة بعد ذلك جمعت كلّ ما رُوي وتأوّلت الخطأ، وصححت الغلط، وأخذت آراء العلماء على اختلافهم من غير تدقيق، فقد تأولوا كلمة «مالك» الواردة في البيت السابق، وقالوا في اليلب إنّهُ الحديد أو الجلد، وصححوا الشطر الذي رويناه «يدوم الفرات فوقها ويموج» بقولهم تدوم البحار فوقها وتموج، وفسروا الديلم بأنها الأعداء أو حياض بالغور، وأسبغوا على العرب نوعًا من العصمة ليس بصحيح، حتى زعموا أن العربي لا يطاوعه لسانه في الخطأ ولو تمّد، وروا لذلك الحكاية المشهورة التي كانت بين سيبويه والكسائي، والحق أن العربي الصميم؛ مثله كمثل الإنجليزي الصميم، والفرنسي الصميم. ولو أراد الفرنسي مثلا أن يحوّر لسانه؛ لينطق بالخطأ عمداً لاستطاع ذلك في يسر، وهو كذلك يخطئ في استعمال بعض الكلمات والتراكيب، ونحو

ذلك، فالعربي مثال ذلك. ولكن مهما قلنا في الخطأ أحيانًا وفي الكذب أحيانًا فهو صفة عارضة ونادرة، وكان الأغلب فيما نقل من اللغة والصدق والصواب.

وقد جد العلماء الأولون في تمحيص ما جمع من ألفاظ اللغة، فقد رأوا أن هناك كلمات كثيرة أخذت عن قبائل مختلفة، لكل قبيلة لفظ أو لهجة، وبعضها أفصح من بعض. ورأوا ألفاظًا لم يستوثق من صحتها، والذي جاء بها لا يوثق به، ورأوا كلمات اختلف في تحديد معانيها، لأنها رويت في جُمَل، واللفظ فيها يحتمل أكثر من معنى واحد. ورأوا ألفاظا صُحِّفَتْ، وألفاظًا كان ينطق بها عربي ألثغ؛ فيظنها الآخذ عنه لغة، وهكذا. فاضطروا أن يحرروا ذلك كله ويمحصوه، فبذلوا من الجهد ما يستدعي الإعجاب، وبينوا من اللغة ماهو صحيح وفصيح، وضعيف منكر، وردئ مذموم فقالوا مثلا: ثَبْطَتْ شفةُ الإنسان ورمَت، وليس بِثَبَت- أرض حشْواء كثيرة التراب، وليس بثبت وهكذا. وألّف ابن خالوية كتابًا سماه «ليس في كلام العرب» بيّن فيه ألفاظًا تستعمل ولم يصح سماعها عن العرب، وقالوا: قال الأصمعي ما سمعنا العام قابةً أي صوت رعد، ولم يروه أحد غيرَ الأصمعي، وإنما روى العلماء ما أصابنا العام قابَة أي قطرة، وقالوا الغرْز لغة أهل البحرين والغرز اللغة العليا، وهكذا. وقد تكون الكلمة واحد، ويختلف العرب في النطق بها فقبيلة تقول، الطبء، في الطَّبع، وأما واللّه، وهما واللّه، وحما واللّه، والأباب والعياب. وأنّ له وعنّ له، والإعاء والوعاء. وهضم عليهم وهجم عليهم، إلى مئات من مثل ذلك. وليس لإختلافهما من سبب إلاّ اختلاف القبائل العربية يفي النطق، وأحياناً من العلماء في الكتابة، وهو ما يسمى بالتصحيف، فقالوا: وبها سُؤدة من شباب، أي بقيّة من شباب، ثم قالوا وبها سؤرة من شباب أي بقية، وليست الأولى إلا تصحيفا للثانية. وأحيانا يكون العربي ألثغ، فيقول في الشابة الثابة، وفي الديك الديش. وقد تعرض العلماء لشيء من ذلك ولم يستوفوه، ولكن المتأخرين وبخاصة صاحب القاموس المحيط كدّسوا ذلك كله من غير تمحيص، وفخروا بأنهم زادوا موادّ كثيرة عمن قبلهم، وكان الأولى أن تستبعد اللثغات، ويحقق التصحيف، ونترك اللهجات. وإذن لا تتضخم هذه المعاجم، وتملأ فراغًا كبيراً نحن أحوج إليه في ألوف الأشياء التي ليس لها اسم واحد.

وكان المدوّنون للغة في هذا العصر يدونون المفردات حيثما اتفق، وكما يتيسر لهم سماعها. فقد يسمعون كلمة في الفَرَس، وأخرى في الغيْث، وثالثة في

الرجل القصير. وهكذا، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب. وكانت الخطوة الثانية، أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد، وأظهر ماكان ذلك في كتب الأصمعي، فله كتاب الأنواء، وكتاب الميسر والقداح، وكتاب خلق الفرس، وكتاب الإبل، وكتاب الشاء، وهكذا، يجمع ماورد من الألفاظ اللغوية في موضوع واحد، ويسميه كتابا، وقد يكون الكتاب بضع ورقات، ثم كانت الخطوة الثالثة عمل المعاجم.

هذا موجز في القول من الناحية اللغوية للثقافة العربية، وهناك ناحية أخرى هي الناحية الأدبية، فقد كان للعرب أدب غزير ممتع، وكان بجانب رواية اللغة رواية الأدب، بل كثيرا ما تكون رواية اللغة في ثنايا رواية الأدب، وكان عرب البادية في ذلك العصر مصدراً للغة والأدب معًا.

كان الناس إذ ذاك يتلذذون من سماع حديث الأعراب، لخفة روحهم وعذوبة نطقهم وبساطتهم، قال الجاحظ: «ليس في الأرض كلام هو أمْتع ولا أنفع، ولا آنقُ ولا ألذفي الأسماع، ولا أشدُّ اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويمًا للبيان؛ من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء، والعلماء البلغاء» [1] وقال ابن عبد ربه- في كلام الأعراب-: «هو أشرف الكلام حسبًا، وأكثره رونقًا. وأحسنه ديباجا، وأقله كلفة، وأوضحه طريقة، إذ كان مدار الكام كله عليه، ومنتسبه إليه»[2] وقد عقد فصلا طويلا، نقل فيه شيئا من كلام الأعراب في الزهد والمدح والذم والغزل والخيل والغيث، والنوادر والملح، والطعام، الخ[3]. وعقد الحضري فصلا ممتعًا عنوانه: «فقَر من كلام الأعراب في ضروب مختلفة»[4] وفي الحق، إنك تقرأ هذ ه الفصول فتؤمن بأن أدبهم جيّد اللفظ، قريب المعنى، قليل الكلفة.

يقول أعرابي في امرأة يحبها: «لقد نَعمت عيْنٌ نظرتْ إليها، وشقى قلب تفجّع عليها، ولقد كنت أزورها عند أهلها، فيرحّب بي طرْفها، ويتجهّمُني لسانها» وكره أعرابي البصرة وأهلها فقال:

1- البيان والتبيين1: 110 2- العقد2: 92

3- المصدر نفسه2: 132. 4- زهر الآداب هامش العقد 2: 2.

«دخلت البصرة، فرأيت ثياب أحرار على أجساد عبيد، إقبال حظهم إدبار الكرام، شجر أصله عند فروعه، شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر» ووصف أعرابي أميراً، فقال: «إذا ولي لم يطابق بين جفونه، وأرسل العيون علي عيونه، فهو غائب عنهم، ساهد معهم، فالمحسنُ راج والمسئ خائف» وقدم أعرابي البادية - وقد نال خيراً من البرامكة - فقيل كيف رأيتهم؟ قال: «رأيتهم وقد أنست بهم نعمة كأنها من ثيابهم» إلى كثير من أمثال ذلك. ولهم النادرة الحلوة، والفكاهة العذبة يتفكه بها الخلفاء في مجالسهم، والخاصة في أحاديثهم، والأدباء في سمرهم. وروى الأصمعي -مثلا- في ذلك الشيء الكثير، يفرّج به همّ الولاة، ويضحك به السُّمّارَ -سافر أعرابي الى رجل فحرمه، فقال لما سئل: «ما ربحنا في سفرنا إلاّ ما قصرنا من صلاتنا، فأما الذي لقيناه من الهواجر، ولقيت منا الأباعر، فعقوبة لنا فيما أفسدنا من حسن ظننا!» وقيل لأعرابي ما عندكم في البادية طبيب؟ قال حُمُرُ الوحش لا تحتاج إلى بيْطار!. وسأل أعرابي رجلا فاعتل عليه فقال: إن كنت كاذبًا فجعلك الله صادقًا! وقال الأصمعي: أصابت الأعرابَ مجاعة، فمررت برجل منهم قاعد مع زوجته بقارعة الطريق، وهو يقول:

يا ربِّ إني قاعد كما ترى وزوجتي قاعدة كما ترى

والبطن مني جائع كما ترى فما ترى يا ربنا فيما ترى؟ الخ.

ثم لهم الحكمة الرائعة يجرون فيها على سنن حِكَم أكثم بن صيفي والأحنف بن قيس هي أشبه ما يكون بالأمثال، قال أعرابي: «الدنيا تنطق بغير لسان، فتخبر عما يكون بما قد كان» «لم أر صاحبًا أغرَّ من الدنيا، ولا ظالمًا أغشم من الموت، ومن عصف عليه الليل والنهار أردياه، ومن وكّلَ به الموت أفناه!» وقال لأعرابي: «الدراهم مياسم، تسم حمداً وذمًا، فمن حسبها كان لها، ومن أنفقها كانت له، وما كل من أعطى مالا أعطى حمداً، ولا كل عديم ذميم!» وقال أعرابي: «إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه، والسلاح عند من لا يستعلمه، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور!» وقيل لأعرابي لم لا تطيل الهجاء؟ قال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعُنق» الخ.

ولهم الشعر الرقيق العذب كالأعرابي يقول في رثاء ولده:

دفنت بنفسي بعض نفسي فأصبحتْ وللنفس منها دافن ودفين

وكالأعرابي يقول في سوداء:

كأنها والكُحْل في مِـــــــرْوَدِها تكْحَل عينيها ببعض جلدها

وأنشد الرّياشي لأعرابي:

ما كنت للقــلب إلاّ فتنة عرضتْ يا حبّذا أنتِ من معْــروضة الفتنِ
تسئ سلْمى وأجزيهــا به حسَنًا فمن سِواي يجازِي السّوْء بالحسنِ

وقال أعرابي قتل أخوه ابنا له، فقُدّم إليه أخوه ليقتاد منه؛ فرمى السيف من يده، وقال:

أقول للنّفس تأساءً وتعزيــةً إحدى يدَيّ أصابتني ولم تُرِدِ
كلاهما خلفٌ من فقْدِ صاحبه هذا أخِي حين أدْعوهُ وذا ولدي

ولهم القصص عن حروبهم وأيامهم، فكانوا يروون أيام العرب في جاهليتها وإسلامها، وما كان فيها من أحداث، وحرب داحس والغبراء، ومقتل كليب بن وائل. كما يتحدثون بسيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم وغزواته، والصحابة وماكان بينهم، ويروون شعر الشعراء من جاهليين وإسلاميين، وخطب الخطباء، وأمثال الحكماء، ونوادر الظرفاء.

كل هذا كان في البادية، فهم رواة الأدب القديم، ولهم إنشاء في الأدب الحديث، لذلك قصدهم العلماء يأخذون عنهم كل ذلك.

وفي الحق كانت سكناهم في البادية، وقلة امتزاجهم بغيرهم من الأمم أدعى لأن يسلكوا سبيل الأولين، ويتذوّقوا ذوقهم، ويعجبوا بمآثرهم، ويسيروا في الأدب على مناهجهم. فإن تأثر شعراء العراق وأدباؤهم بالفرس ومن إليهم؛ فإنّ هؤلاء تأثروا آباءهم في الجاهلية وآباءهم في الإسلام، وكان أدبهم صورة حيّة للأدب القديم، وصدورهم واعية لآثار الأقدمين، ونوع معيشتهم أشبه بمعيشة الأولين، قال عمر بن عبد العزيز : «ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب، لولا جفاء فيهم!»[1]

بقلم: أحمد أمين

كتاب «ضحى الإسلام» ج1

1- النقد2: 93.

لو...

عباس محمود العقاد

« لو » في حياة الأفراد كثيرة وهي في حياة الأمم أكثر.

فما من أحد إلاّ ويذكر في حياته حادثًا خطيراً كان من الجائز ألا يحدث لولا مصادفة صغيرة، أو عملا جليلاً تم على يديه وكان من الجائز ألا يتم لولا كلمة سمعها أو خبر وصل إليه من حيث لا ينتظر وصوله، وأكثر الناس يستطيع أن يرد أمر نجاحه، إخفاقه وسعادته أو شقائه إلى أشياء لم تكن تخطر على باله قبل وقوعها ولو أنها وقت عرضا كما اتفق بها لتغير مجرى حياته.

ويتفق هذا للأمم كما يتفق للأفراد أو هو في تواريخ الأمم أكثر اتفاقا لأنها أطول أعماراً وأحفل بالحوادث وأوسع منافذ للصروف والغير، فهي كذلك أحفل بالمصادفات أو ما نسميه نحن بالمصادفات لأننا نجهل ما رواه من الأسباب ولا نسلسل حلقاتها الى مبادئها الخفية وأصولها الحقيقة. وهذا هو موضع البحث الذي يكتب فيه الآن الأستاذ «هيرنشو» أستاذ التاريخ بكلية الملك في جامعة لندن وينشر فصوله المتوالية في مجلة «الأوتلاين» الإنجليزية.

من الأقوال المشهورة أنه لو اختلف أنف كليوبترا في الطول بمقدار ثمن قيراط لاختلف معه تاريخ المسيحية وتاريخ العالم بأسره.

كيـــــف ذلـــــــك؟

قالوا: نعم. لو طال أنف كليبوترا أو قصر بمقدار ثمن قيراط لشاه وجهها وذهبت فتنة جمالها وعز عليها أن توقع في شباكها رجلا كيوليوس قيصر أو رجلا كمارك أنطونيوس ومن ثم كانت معركة «اكتيوم» تختفي من التاريخ وكانت دولة «أوغسطس» تنشأ في حدود غير حدودها ومعالم غير معالمها، فلا بيلاطس يحكم في سورية ولا هيرود يملك على اليهود ولا الظروف التي أتاحت

للقديس بولس أن يجوب الأقطار للتبشير بدعوته كانت تتهيأ له كما تهيأت أو تحدث كما حدثت. وكان من المحتمل أن تظل رومة بمعزل عن المسيحية بقية حياتها، إلى غير ذلك من التقديرات التي ليس لها اليوم ميزان توزن به ولا يقف بها التحليل عند غاية.

ذلك مثل مما يصح أن يتغير في تاريخ الدنيا إذا تغير فهي أنف إمرأة، وليس هذا التغيير بالأمر الحقير كما يقول الأستاذ ولا سيما في رأي السيدة التي تحمل ذلك الأنف الذي يراد به أن يقصر أو يطول..! ولكنه بالغًا ما بلغ من الخطر وجلالة الشأن تغيير يعجب الكثيرين إذ قيل لهم إنه يتصرف بالدنيا والآخرة هذا التصرف وتتعلق به مقادير الأمم وآمال بني الإنسان في العالم المجهول.

ومثل آخر من الأمثلة التي ذكرها الأستاذ في فصول هذا البحث، عمر الإسكندر الكبير الذي مات بحمى «الملاريا» في الثالثة والثلاثين وهي سن صغيرة يفتتح بها كثير من الناس سجل الشهرة والخلود. أفما كان من الجائز ألا يصاب الإسكندر بالحمى وألا يموت في هذه السن الصغيرة؟ وإذا تأخر به العمر حتى ناهز السبعين أو الثمانين وأنجز ما في نفسه من المطالب والخطط أفكان يمضي تاريخ الشرق والغرب في مجراه الذي مضى فيه أم كان لابد له من تغيير يظهر لنا أموراً لم تظهر ويخفي أموراً لم تخف ويترتب عليه أن أناسًا منا لا يولدون وأن أناسًا آخرين يولدون وهم الآن في عالم الوهم والإحتمال؟

قال الأستاذ: لو أن الإسكندر الكبير لم يحتضر في سنة 323 قبيل الميلاد بل عاش حتى بلغ الكهولة على الأقل فنظم فتوحاته ووطد أركان ملكه وأتم برنامج فتوحه وأنضج سياسته لجاز أن يتحول كل مَا أعقبه من الحوادث تحولاً عظيماً باقي الآثار. فقد كان في العهد الذي مات فيه ينوي أن يغزو بلاد العرب ليضمها الى دولته وأن يسيّر على قرطاجنة أسطولا، ثم يغير بعد ذلك على «رومة» التي كان الإستيلاء عليها في ذلك الحين من أهون الأمور وأقلها كلفة...

فلو أنه ملك بلاد العرب لكان من المحتمل ألا يظهر النبي محمد..!

ولو أنه ملك قرطاجنة لكان من المحتمل ألاّ يظهر هنيبال ولا يتردد له إسم في الأسماء.

ولو أنه ملك رومة لما ظهر يوليوس قيصر من خموله في الريف ولا كان هذا الشهر يوليو (كتب هذا الفصل في شهر يوليو الماضي).

بل أعظم من ذلك أن المسيحية التي كانت في عنصرها نحلة من نحل الإسكندرية ما كانت لتصبح يومًا وهي كاثوليكية رومانية.

* * *

واحتمال آخر من هذه الإحتمالات العجيبة. إن فلسفة روسو كلها كانت على وشك الضياع في ساعة من الساعات ثم كان من المحقق أن ضياعها يؤثر بعض التأثير في مجرى الثورة الفرنسية التي كان روسو من أبنائها المتبعين وكانت كتبه بمثابة الوحي لبعض دعاتها المسموعين.

فلو إستطاع روسو في مساء 14 مارس 1728 أن يتقدم عشرين خطوة الى باب جنيف لبقي حيث كان صبيا يتعلم الحفر ويعول على النبوغ وقلمًا يخطر له خاطر الكتابة والتأليف.

ولكن روسو تأخر عشرين خطوة عن باب المدينة في ساعة اقفاله ففر من معلمه الصارم العسوف الذي كان أنذره أشد انذار إذا هو تأخر في المساء، وعرف روسو معنى هذا الإنذار من سابقتين سلفتا له في التأخير فلوى وجهه عن باب المدينة وأقدم على تلك الحياة الشاردة الهائمة التي ساقته الى التأليف وبثت في تصانيفه روح التذمر وحب التبديل.

وحدث كل ذلك اتفاقا على خلاف الحساب المعروف، فإن باب المدينة كان يقفل في الساعة الثامنة وروسو قد عاد من رحلته في الخلاء قبل الساعة الثامنة ببضع دقائق. فلماذا أقفل الباب يومئذ قبل موعده؟ ولماذا حدث بعد ذلك ما حدث من خطوب كبار في تاريخ السياسة وتاريخ الأدب؟ حدث ذلك كله لأن حارس الباب كان على موعد مع حبيبته تنتظره في ذلك المساء وكان شديد الشوق الى لقائها فعجل بإقفال الباب قبل الساعة الثامنة، وكان روسو على

مسافة عشرين خطوة منه فعدا إليه فلم يدركه وضاع رجاؤه عبثًا وتركه الحاسر يصرخ لمن لا يجيب ويتخبط ولا من سميع...

* * *

هذه أمثلة من احتمالات كثيرة أوردها الأستاذ وأورد غيرها، وفي وسعنا نحن أن نضيف إليها من تاريخ مصر الحديث ما يضارعها في الغرابة وفي حكم المصادفة، فماذا كان يطرأ على تاريخنا الحديث من التغيير لو أن محمد علي الكبير لم ينج من الماء في الشواطئ المصرية عند قدومه الى مصر في المرة الأولى؟ أو المماليك قبل ذلك من خائن وجاسوس؟ أو ماذا كان يطرأ عليه لو أن «سعد زغلول» عمل في الفلاحة والزراعة ولم يعمل في الفقه والقانون فهذه احتمالات معلقة بالمصادفات التي قد تكون وقد لا تكون ولكنها خطيرة النتائج بعيدة الآثار.

لنا أن نخفف من غلواء هذه الإحتمالات فلا نجعلها الحكم المطلق فيما يتعلق بها من التطور والتبديل. لنا أن نقول مثلاً في أنف كليوبترا أنه كان يطول أو يقصر وإن ملامحتها كانت تشوه أو تحسن، ثم لا يغير ذلك من قلب «أنطونيوس» وحبه للنساء واستعداده للوقوع في شرك إمرأة غير كليوبترا من نسائها أو من نساء بعض البلاد.

ولنا أن نقول إن الشقاق كان وشيكا أن تنجم له أسباب كثيرة بين «أنطونيوس» و«أكتافيوس» فتؤدي الى الحرب فالظفر لمن هو أهل للظفر والهزيمة لمن هو أهل للهزيمة.

ولنا أن نقول إن رومة كانت تطمع في ملك مصر ولو لم ينشب فيها نزاع بين قائدين ولم يقبض فيها على ناصية الأمر قائد مغوار عظيم الدهاء.

لنا أن نقول هذا في أنف كليوبترا، ولنا أن نقول مثله في عمر الإسكندر وفي خطوات روسو وفيما شابه ذلك من العوارض والمصادفات، ولكننا إذا قلنا هذا أو غيره فإلى أين نريد أن نصل وبماذا نخرج من جميع هذه الفروض.

هل نستطيع أن ننكر أن الكبائر تتعلق بالصغائر وأن هذه الصغائر إذا زالت أو لم تحدث خلقتها صغائر أخرى تعمل عملها وتقوم في تصريف الكبائر مقامها، هل نستطيع أن نغتر بأنفسنا فنزعم أن كل جليلة تكبر علينا تكبر على المقادير فلا تعترينا إلاّ كما نقدر لها من التقدير ونفرض لها من الظواهر والأسباب.

هذه هي العبرة من حيث «لو» وما تصرفه من تواريخ الأفراد والأمم، فقد يعظم علينا الخطب فيكبر علينا أن نعلقه بالصغائر، ثم لا ترى فيه الأقدار إلاّ أن تعلقه بأصغر صغيرة من العوارض والمصادفات، وقد نلتمس العلل الجسيمة لأننا نقيسها بمقياس لا تأخذ به نواميس الوجود، وعزيز علينا أن تتعلق مصائر الأمم بثمن قيراط ينقص في أنف كليوبترا أو يزيد. ولكن من أين لنا أن ماهو عزيز علينا عزيز كذلك على الأقدار أو على نواميس الوجود.

قال حكيم: إذا شئت أن تهون عليك خطوب بني الإنسان فارفع بصرك الى السماء وانظر أين تقع الأرض في ذلك الكون الفسيح الذي لا أول له ولا آخر... أفحق نحن في حاجة إلى نظرة في السماء الرفيعة والكون الفسيح لنعلم كيف يهون علينا ما ليس يهون لا ياسيدي الحكيم! أنظر الى الخطوب نفسها وانظر الى أسبابها ومصادفتها تعلم كيف تهون عليك تلك الخطوب.

فلسفة الحياة

لأحمد أمين

لقد سبق الكتاب وجفّ القلم الأزلي على علم الله فما أتينا الى هذه الدنيا إلاّ ليمثل كلٌّ واحد منا فصلاً من معاني الشقاء الإنساني في تلك الثياب التي هي ملك لصاحب المسرح، لا نخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الآخر. فلسنا نبتدع ولكن يُلقى علينا وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذي، والرواية موضوعة تامة قبل ممثليها. وضعها ذلك القلم الأعلى الذي كتب مقادير كل شيء كان أو يكون حتى تُمحى من صفحة الأرض هذه الأحرف السوداء المتحركة والساكنة...[1]

والمشكلة الإنسانية الكبرى ان كل انسان يريد أن يكون بطل الرواية ومَثَلها البكر حتى ذلك الشخص الذي جيء به لتنزل عليه اللعنة في سياقها. غير أن الرواية مفصّلة من قبل، ويأتي فصل اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه فينصب على ممثله جملة واحدة على وجه لا يحسّ ولا يُرى ولا يُدفع كما يلبسه النوم فإذا هو يفتل فيه فتلا وإذا رجل على أعين الناس باللعنة حال وباللعنة مرتحل.

النوم والقَدَر والموت كالشيء الواحد أو ثلاثتها أجزاء لشيء واحد، فالنوم غفلة تُخرج الحيّ هنيهة من الحياة كلها إلى حالة أخرى، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها إلى حياة أخرى، والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هيّنا على أهل

1- كناية عند الناس.

السعادة بأسلوب النوم ويجيء لأهل الشقاء عنيفا في أسلوب الموت، ولن يجلب شيئا أو يدفع عن نفسه شيئا من هذه الثلاثة إلا الذي لم يُخلق على الأرض، ذلك الذي يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام، أو يحفظ نفسه على الصغر والأكبر فلا يموت، أو يضرب بيديه على مدار الفلك فيُمسكه ما شاء أو يُرسله.

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيّرين ونذهب غير مخيرين إن طوعا وإن كرها؛ فمدّ يدك بالرضا والمتابعة للأقدار أو انزعها إن شئت فإنك على الطاعة ما أنت على الكره وعلى الرضا ما أنت على الغضب؛ ولن تعرف في مذاهب القدر إذا أنت أقبلت أو أدبرت أيّ وجهيك هو الوجه، فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك أو مدبرا والمنفعة أمامك مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيّهما شاء.

وحريّ بمن يوقن انه لم يولد بذاته أن لا يشك في انه لم يولد لذاته؛ وإنما هي الغاية المقدورة المتعينة فلا الخلق يتركونك لنفسك ولا الخالق تارك نفسك لك.

* * *

العادة
بين نقائض الحياة

عباس محمود العقاد

كلما أزددنا خبرة بالحياة ظهر لنا أن أصعب ما فيها من المصاعب إنما هو تغيير عادة وأن الموت نفسه لا يفجعنا في اعزائنا إلاّ لأنه يقتلع من نفوسنا عادات تعودناها ويمنعنا مآلف طالما أوينا إليها. فلو مات نصف الناس -بل لو مات الناس جميعا- دون أن يغيروا لنا عادة في الحس أو في العقل لما تحركنا لهذا المصاب ولا هالنا أن تنقضي كل تلك الحياة ونحن نضيق صدراً بحياة واحدة مزلوفة لدينا تفارقنا وينقطع ما بيننا وبينها ولو رجعنا الى مصائب النفوس كلها لم نجد بينها إلاّ ماهو تغيير لعادة نحس به فجأة أو على تراخي الزمن حسبما فيه من مصادف أو مجاراة.

يقال أن الحيوان لا يعرف الموت ولا يدرك كنهه وان كان ليهرب منه بغريزته ويعمل كل ما يعمله عارف الموت للتعلق بحياته. والظاهر أن هذا صحيح وان عرفان الموت حصة الإنسان وحده من هذه الأحياء، ولكن إذا فهمنا من ذلك ان الحيوان لا يحس فقد الموتى من ألفائه ولا يحزن عليهم فذلك خطأ تكذبه المشاهدة وينفيه التأمل. إنما نختلف عن الحيوان في هذا الأمر بشيء واحد هو أننا نعلم إن دهم الموت عزيزاً علينا أن تغيير عادتنا حسام أبداً لا رجعة له الى آخر الزمان، وأن الحيوان يحس تغيير العادة ولا يبعد بمداها الى غير لحظته التي هو فيها، فالموت عنده والبعد الى حين سواء في الواقع والصدمة وطبيعته من ثم أقرب الى السلوان وأبعد منه في آن واحد. أقرب الى السلوان لأن الفناء عنده كالفراق القريب لا يرجح أحدهما على الآخر عند حلول الكارثة، وأبعد من

السلوان لأنه هو إبن العادة وأسيرها فإذا تجمعت حياته على عادة من العادات فقد يهلك عند تبديلها ولا يجد من العقل ذلك المعوان الذي يجده الإنسان وذلك العزاء الذي يخلقه بالتأسي والأمل وكلاهما محجوب عن الحيوان.

ومن خصائصنا نحن بني الإنسان اللغة، نحصر بها المعاني فنفهمها ونحصرها أيضا فلا نفهمها أو لا نحسها كما ينبغي لها من الإحساس بها. فهذه كلمة «مات» ماذا يتبادر إلى الذهن من لفظها مفردة بغير «فاعل« يقترن بها؟ يتبادر اليه أن فعلاً واحداً حدث هو الموت وأن شيئا بطل هو الحياة. ولكن هل هذا تصور صحيح للحقيقة؟ هل هذا من الحصر الذي يحيط بجوانب الحوادث أو من الحصر الذي يطمسها ويخفيها؟ الحقيقة أنه لا الموت فعل واحد ولا الحياة شيء واحد، وإنما الموت أفعال كثيرة أو بطلان أفعال كثيرة والحياة هي كل ما يشتمل عليه معجمنا من أقوال وأفعال.

يعرف هذه الحقيقة بحسه ووجدانه من جرب فقد عزيز عليه. يعرف أنه يأسى على أشياء لا عداد لها حين يأسى على ذلك العزيز، يأسى على كلمات سمعها لن يسمعها بعد ذاك، وعلى ملامح رآها لن تلم بها عيناه، وعلى مجالس حضرها لن ترجع بها الأيام، وعلى مسرات اشترك فيها لن يجد شريكه عليها أبد الأبد، وعلى غدوات وروحات ومناظر ومسامع وأشواق وفجائع تنتزع كل منها انتزاعا من مكانها في النفس الموجعة، فكأنما النفس بها مصرع أشلاء أو ميدان يئن فيه الجريح ويبغت المصعوق، وكأنما في النفس مقتلة طائشة حين تنكب بفناء صديق له فيها ماله من الآثار، وكأنما كل أثر حفظته من صديقها روح حية تعالج سكرات الردى وتستمسك بالبقاء، فالموت فعل واحد في اللغة ولكنه أفعال لا حصر لها في طوايا النفوس ومن مات له عزيز فهو هو الواقع في غمرة الموت يمشي في عالم الحياة بجيش من الجرحى والهالكين.

والحياة بحذافيرها ماهي، أليست عادة واحدة كبيرة؟ أليست جملة عادات تجمعت في بنية واحدة؟ لقد كان المتنبي بصيراً ملهمًا حين قال:

إلف هذا الهواء أوقع في الأنفس أن الحمام مر المذاق

فإنما الحياة إلف هذا الهواء، وهي إلفة أو إعادة من وقع في أسرها شق عليه الفكاك منها.

ولكن من نعني إذ ا قلنا أن الإنسان يألف الحياة؟ نعني ذارت في الجسم الحي ألفت ان يتصل بعضها ببعض وان يكون اتصالها هذا على صورة خاصة بها. فإذا كانت جرأة من الإنسان على الموت فليست هي إلاّ تلك الجرأة النبيلة على اقتحام الجديد، وليست هي إلاّ الفتح للمجهول والغلبة على أسر القيود، وقد يتعود الإنسان ذلك أيضا فلا يقدم على ترك الحياة إلاّ بقوة من الحياة.

إن تعقب الدرجات التي تترقى فيها الكائنات تهدينا الى فروق بينها يمكن إجمالها في فرق واحد، وهو أن الخليقة كلما ارتقت كانت آية ارتقائها القدرة على الإبتداع أي على اقتحام المجهول والغلبة على القيود. فبين الجماد والنبات والحيوان والإنسان فروق خلاصتها: أن أرقى هذه الكائنات اقدرها على قهر العادة بعادة اكبر منها، بل لك أن تقول إن أرقى هذه الكائنات من تم له الإنتقال من العادة البسيطة إلى العادة المركبة ومن العادة المحصورة في نفسها الى العادة التي تشرئب لما فوقها، وسنعيد هذا القول بعبارة اسهل مورداً على الذهن وأبعد عن اغراب الفلسفة الذي يصد بعض الأسماع عنها، فنقول إن الإبتداع هو علامة الإرتقاء، وأن الإبتداع هو الخروج على العادة، وإن القدرة على الإبتداع لن تخرج عن كونها عادة أخرى لا رأي للمرء في اتباعها أو اجتنابها،وإنما هي عادة أرفع من عادات وقيد أجمل من قيود.

* * *

ألاحظ أنني كلما دخلت غرفة مظلمة مددت يدي الى مفتاح الإنارة أديره قاصداً أن تضئ تلك الحجرة، فإذا تكرر هذا العمل مرات في أيام متوالية تعودت يدي أن تمتد الى مكان المفتاح بقصد وبغير قصد. فإذا كان الوقت نهارا وكنت مشغول الفكر في أمر من الأمور أدرت المفتاح ولم ألتفت الى ما صنعت إلاّ بعد حين، وقد يكون الوقت ليلاً والحجرة مضاءة فتتحرك يدي بغير تفكير الى المفتاح تديره فإذا الحجرة مظلمة فأنتبه الى خطأ اليد في هذه الحركة، فالعمل الذي تتعوده يعفيك من مؤنة التفكير والتدبر ويريحك من جهد الإنشاء

والموازنة. وكأنها راحة لا تنال إلاّ على حساب ملكة معطلة وقدرة في الذهن مهملة.. أو كما قال أبو تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلاّ على جسر من التعب

ففي كل حرية تبعة ومشقة، وفي كل راحة اعفاء من تبعة وسلامة من مشقة، وهنا تتلخص محاسن العادة ومساوئها فإذا هي تسهيل وحرمان في آن واحد.

تعود عملاً من الأعمال تسقط عنك كلفاته وتبعاته ويسهل عليك أداؤه ولكنك تخرج بذلك العمل من حيز الإبتداع وتدخل به في حيز الآلية، فأنت كاسب خاسر ومستهدف لراحة الإعفاء وخطره في وقت واحد، ولن تسلم من مغبة العادة إلاّ إذا «تعودت» أن تكون مبتدعا أبدا تتخذ من تسهيل بعض الأشياء سلمًا الى اقتحام ما فوقها، كما يصنع القائد الفاتح حين يأمن على أرض ذللها ليتخذ منها حصنا يهجم منه على ما بعدها، فأما أن تخرج بالعادة من دائرة الإبتداع أبداً فتلك خسارة وعبودية ولك ما فيها من راحة إنما هو راحة العبد يعفى على طوع أو كره من تكاليف الأحرار وتبعات «المسئولين».

ويقول ببليليوس سيروس الروماني: «في بعض الأحيان يكون من الشر أن تعود نفسك على ماهو خير» وهذا قول حكيم ونظر صحيح-فإن العادة خير إذا سهلت لك عمل الخير وسوغته لطبعك وأجرته من أخلاقك مجرى الأمر الذي لا تعسف فيه ولا إرهاق، ولكنها شر إذا سلبتك التصرف وجعلتك عبدا لشيء من الأشياء لا مفر لك منه ولا علم لك بالمواضع التي يحسن فيها اجتنابه، فالإبداع -بعد كل ما يقال- هو أحسن عادتنا لأنه رفيق الحرية ورفيق التبعة نتجدد به ولا نخسر بالتزامه. وسنة الحياة هي سنة الإبتداع فهي لا تفتأ في جديد وهي لا تطمئن على محصول حتى يلج بها القلق ويحملها الشوق الى سواه، وقد كانت الهجرة عادة حسنة لبعض الطير وكانت له فيها سلامة ونجاة، فلما اعترض البحر طريق هجرته أصبحت وبالا عليه أشد من الوبال الذي يخشاه؛ وكثير من الناس من يألف الشيء فيجني به خيراً أو يمهد به طريقًا وعراً ولكنه يتمادى فيه فينقلب عليه ويحتاج الى الخلاص منه، ولا ضير على الإنسان ان يعدل عن

صواب أصبح خطأ، وانما الضير أن يستعبده الصواب فإذا هو مخطئ على الرغم منه وإذا هو شر من المخطئ الذي يفكر ويريد.

وتعجبني كلمة لوزير إنجليزي -أضنه تشمبرلن الكبير- إذ عيره خصومه أنه تحول من رأي كان يؤديه ويشتد في تأديته الى رأي يناقضه كل المناقضة، فقال الوزير الأريب: إنني لا أحب أن أستعبد نفسي حتى لما كنت أقوله في أمسي! وتلك كلمة قد يقولها السياسي اللبق ليقضي بها لبانة ويخدع بها جمهوراً، ولكنها قد تجري على لسان الحكيم فلا يعيبها مراء، ولا يشوبها خداع.

وإن الخطأ لمعدود في بعض الأحوال من فضائل الإنسان ودلائل الإدراك. فالنحلة لا تخطئ في شكل خلاياها ولا تغلط في تقويم مكعباتها، والإنسان عرضة للغلط في كل شيء يرسمه وفي كل بناء يقومه، ولا يكون غلطه إلاّ دليلاً على سعة الجوانب واضطلاعه بأعباء الصواب. وقد نهبط من النحلة إلى الآلة فنقول إن المطبعة لا تنحرف نسخة من كتابتها عن نسخة وقد تنحرف كل نسخة يكتبها الإنسان عن الأخرى، فمن الإستعداد للصواب أن تكون مستعداً للخطأ ومما يشين الصواب ألاّ تكون قادراً على غيره ولا مختاراً في اتباعه والمواءمة بينه وبين زمانه ومكانه.

وفي تركيب الطبائع أن تحب الذين يدركهم ضعف الإنسانية وتنفر ممن لا يدركهم ذلك الضعف في بعض جوانب الشعور. فإن النفس التي تشعر تخطئ والنفس المعصومة ليست من بني الإنسان، فلا قرابة بيننا وبينها ولا تعاطف ولا محبة، والطفل أكثر الناس خطأ ولا يمنعه ذلك من الحياة والحياة لا تنافي الخطأ وإنما تنافي الجمود، فلا الفكر إذن ولا العاطفة يمنعان الخطأ ولكلنهما يمنعان أن يظل الإنسان آلة تستعبدها العادة وتستكين بها السهولة، ولا أدري ماذا يعني من قال إن الحياة تضحية مستمرة ولكني أستطيع أن أفهم من قوله هذا أن التزام العادة اثرة مريحة وأن تغييرات العادة تعب وتضحية، وأن الحياة لاتني تدفعنا في طريق تغييرالعادات فلا نطمئن إلى مألوف حتى نزهد فيه لنألف غيره ثم نزهد فيه دواليك بغير انتهاء. فالحياة بهذا المعنى فداء متجدد وألفة بعدها فرقة وفرقة تعود الى ائتلاف.

الناس أحباء ماألفوا أعداء ما جهلوا، هذا صحيح. وقد يكون صحيحًا مثله أن الناس أعداء ماألفوا أحباء ما جهلوا. فإننا لا نزال على مافينا من الإستراحة الى المألوف الذي نهواه مدفوعين الى المجهول الذي لا نراه، ولا نزال نألف ثم نترك ثم نألف فنشفى بهذا النقل ولا يلوي بنا الشقاء، وقوام القولين أن العادة راحة وسكون والحياة حركة وابتداع، فنحن بخير ما جرت عادتنا على سنة الحياة وبقيت لنا القوة التي تعيننا على تبدل الراحات وتعاقب المألوفات حتى إذا فقدنا هذه القوة أصبحنا شيئا آخر لا يحسن التبدل أو لا يحسن الحياة، وفقدنا العادة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العادات.

obeikan.com

أمثال مصرية

اعداد: أحمد تيمور

- إسمك ايه قال: اسمي عنبر وصنعتك إيه: قال: سرباتي قالوا: خسرت الإسم بالصنعة

- اسيادي واسياد اجدادي اللي يقولوا همي هم أولادي

- اشتري بدرهم بلح، بقى له في نخل!

- اشتري الجار قبل الدار

- اشتر ماتبعش

- أشحال ضعيفكم؟ قالوا: قوينا مات

- اشرفوا عند اللي ما يعرفوا»

- اشكو لمين وكل الناس مجاريح

- اشهد لي بكحكة اشهد لك برغيف

- اصباح الخير يا عورة، قال ذا شر بايت

- صباح الخير يا جاري أنت في دارك وانا في داري

- اصبر على الجار السوء يا يرحل يا تجي له داهية

- ارشوا تشفوا

- الأرض تضرب ويا أصحابها (المرافقة)

- الأرض موش شهاوي دي ضرب ع الكلاوي

- ارقص للقرد في دولته

- اركب حمارة العازب وحدثه في الزواج

- اركب أبو الريش قال بس ان فضل كدبش

- ارميه في الطوح وان كان لك فيه قسمه ما يروح

- ازرع ابن آدم يقلعك

- ازرع كل يوم تاكل كل يوم

- اسأل قبل ما تناسب بيان لك الردى والمناسب

- أسأل مجرب ولا تسأل طبيب اسأله عن أبيه يقولك خالي شعيب

- اسألي على ما تفعلي

- اسمع ضراطه ولا تسمع عياطه

- اسمع من هنا وسيّب من هنا

- اجري يا مكشاش للي قايد مرتاح

- أجود من الذهب من يجود بالذهب

obeikan.com

- أحبك يا سواري زي زندي لأ

- احتاجوا اليهودي قال اليوم عيدي

- احترت يا بخرا أبوسك منين

- احسب حساب المريس (ريح الجنوب) وين جاك طياب من الله

- احضر اردبك (مكيال) يزيد

- الأحمق ينصح في وقت الضيق

- احنا فين والثالث جانا منين

- احنا نقر في سورة عبس؟!

- احيبني النهار ده وميتني بكره

- اخته في الخمارة وعامل أماره.

- الأخذ حلو والعطا مر

- أخرس وعامل قاضي

- أخرها وراء آخر النهار تجيك قدام

- اخطب لبنتك قبل ما تخطب لابنك

- اخلص النية وبات في البرية

- أخوك لا يحبك غنى عنه ولا يموت.

- إبنه على كتفه ويدور عليه

- أبو ألف حسد أبو ميه

obeikan.com

- أبو بالين كذاب

- أبو البنات مرزوق

- أبو جعران في بيته سلطان.

- أبو جوضه وأبو فلة في القبر بيدلى.

- أبوك البصل وأمك الثوم منين لك الريحة الطيبة يا مشؤوم.

- أبوك خلف لك إيه قال جدي ومات

- أبوك خلف لك عمك ما يديك .

- أبوك ماهو أبوك أخوك ماهو أخوك.

- أبو ماية يحسد أبو ثنية (إثنان).

- أبوي وطان وزوجي علام.

- الأبيض في الكلاب نجس.

- اتبع اليوم يوديك الخراب.

- اتبع الكذاب لحد باب الدار

- الإبريق المليان ما يقلقكش

- ابطي ولا تخطي

- الأب عاشق والأم غيرانة والبنت حيرانة

- إبقي سقا وترش علي الماء

- إبليس ما يخربش بيته

obeikan.com

- إبن ادم في التفكير والرب في التدبير

- ابن الحاكم يتيم

- ابن الحرام ما خلاش لابن الحلال حاجة

- ابن الحرام يطلع يا قواس يا مكاس

- ابن الديب ما يترباش

- ابن الصايغ اشترى على ابوه خاتم.

- ابن الريس ثقل على المركب

- ابن الكبة طلع القبة وابن اسم الله خَدْه الله.

- ابن الهبلة يعيش أكثر

- ابن الوز عوام

- ابن يومين ما يعيش ثلاثة

- ابنك على ما تربيه

- آخذ ابن عمي واتغطى بكمي

- آخر الحياة الموت

- آخر خدمة العز علقة.

- آخر ده يجيب ده

- آخر الزمر طيط.

- آخر المعروف ينضرب بالكفوف.

obeikan.com

- آدي السماء وآدي الأرض.

- آدِيني حية لما أشوف اللي جاية.

- آمنوا على مشنة مليانـــــة عيش ولا تامنوا على بيت مليانة جيش

- آهي ليلة وفراقها صبح

- ابرد من ميه طوبه.

- أبرد من يخ (ثلج فـــــــــازس)

- الإبرة اللي فيها خيطين ما تخيطش

- ابريق انكسر وأدي بزبـــــــــوزه

* * *

obeikan.com